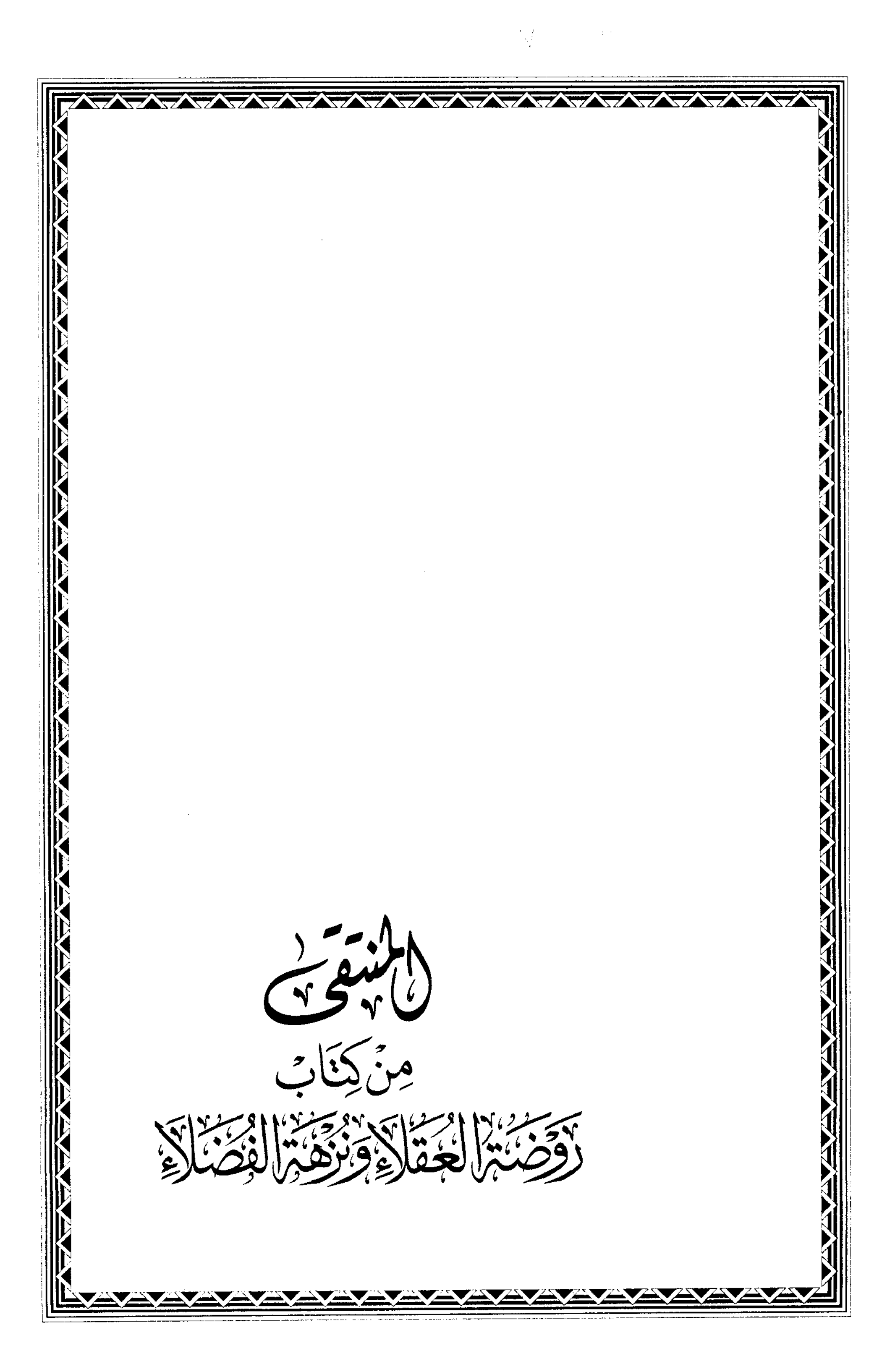
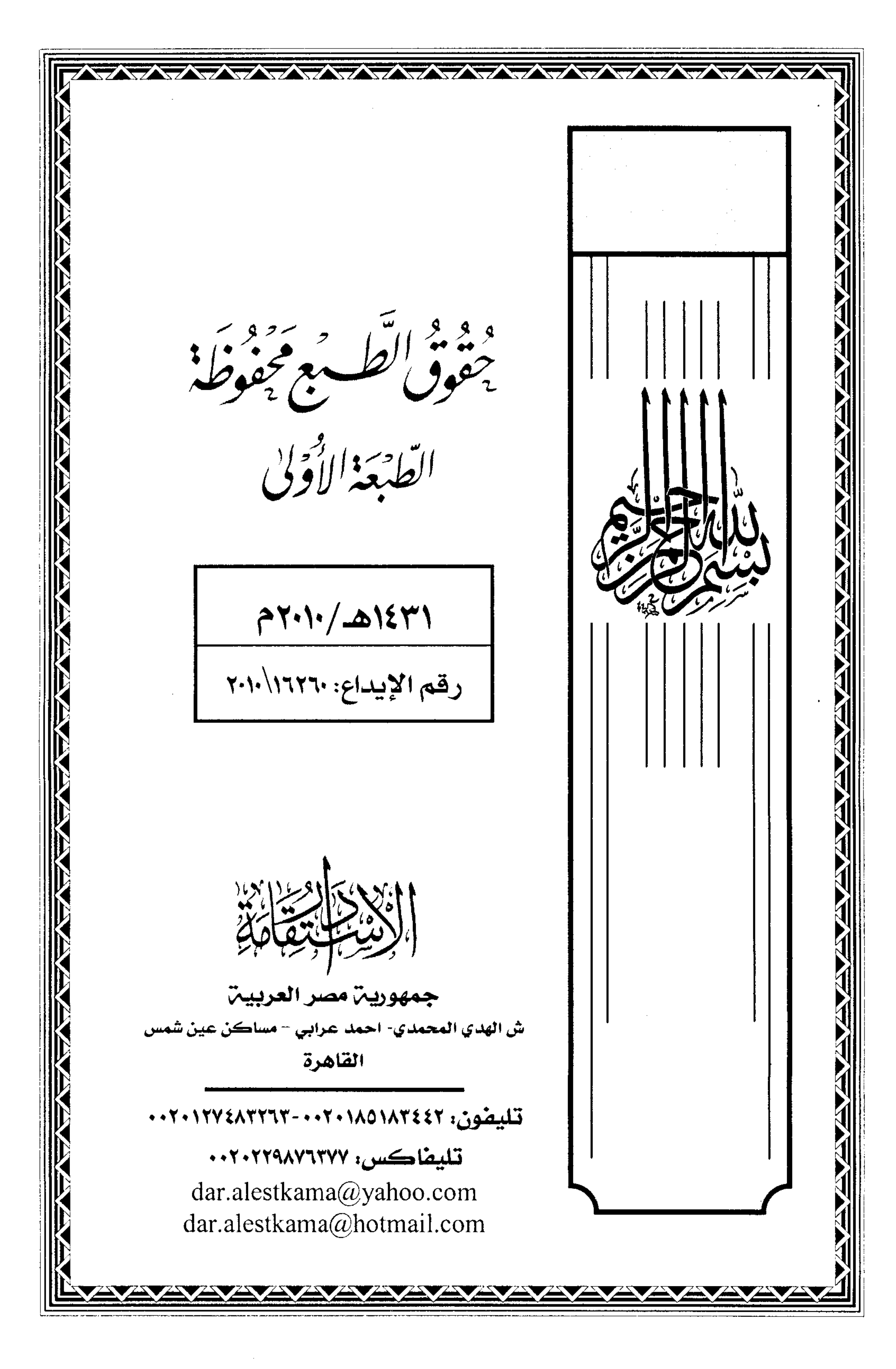

المنتقى
من كتاب
روضة العقلاء ونزهة الفضلاء



الطبعة الأولى

١٤٣١هـ/٢٠١٠م

رقم الإيداع: ١٦٢٦٠\٢٠١٠

دار الاستقامة

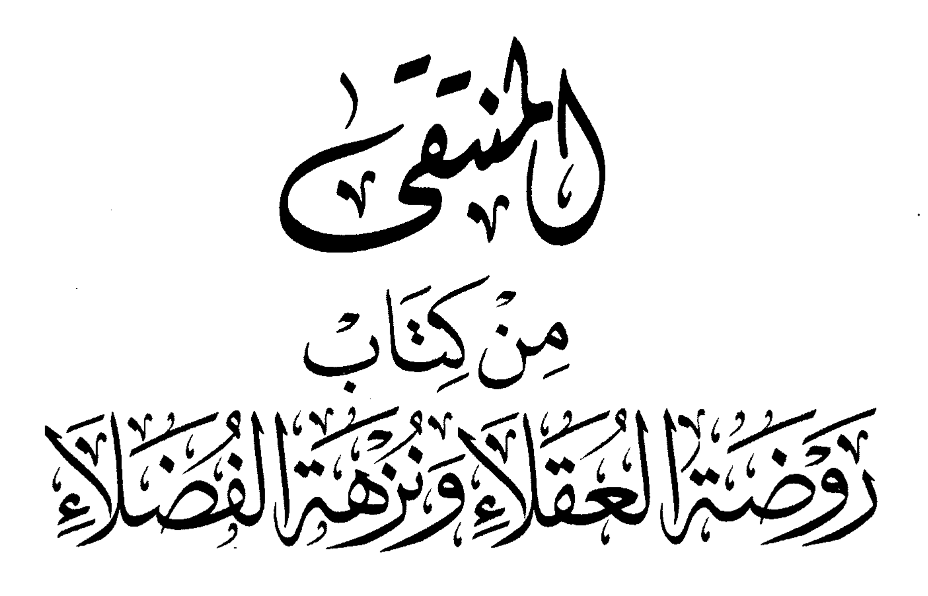
جمهورية مصر العربية

ش الهدي المحمدي- احمد عرابي - مساكن عين شمس
القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠١٨٥١٨٣٤٤٢-٠٠٢٠١٢٧٤٨٣٢٦٣-٠٠٢٠

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٩٨٧٦٣٧٧

dar.alestkama@yahoo.com
dar.alestkama@hotmail.com



للإمام

أبي حاتم محمد بن حبان البُستي

المتوفي سنة ٣٥٤ هـ

رحمه الله

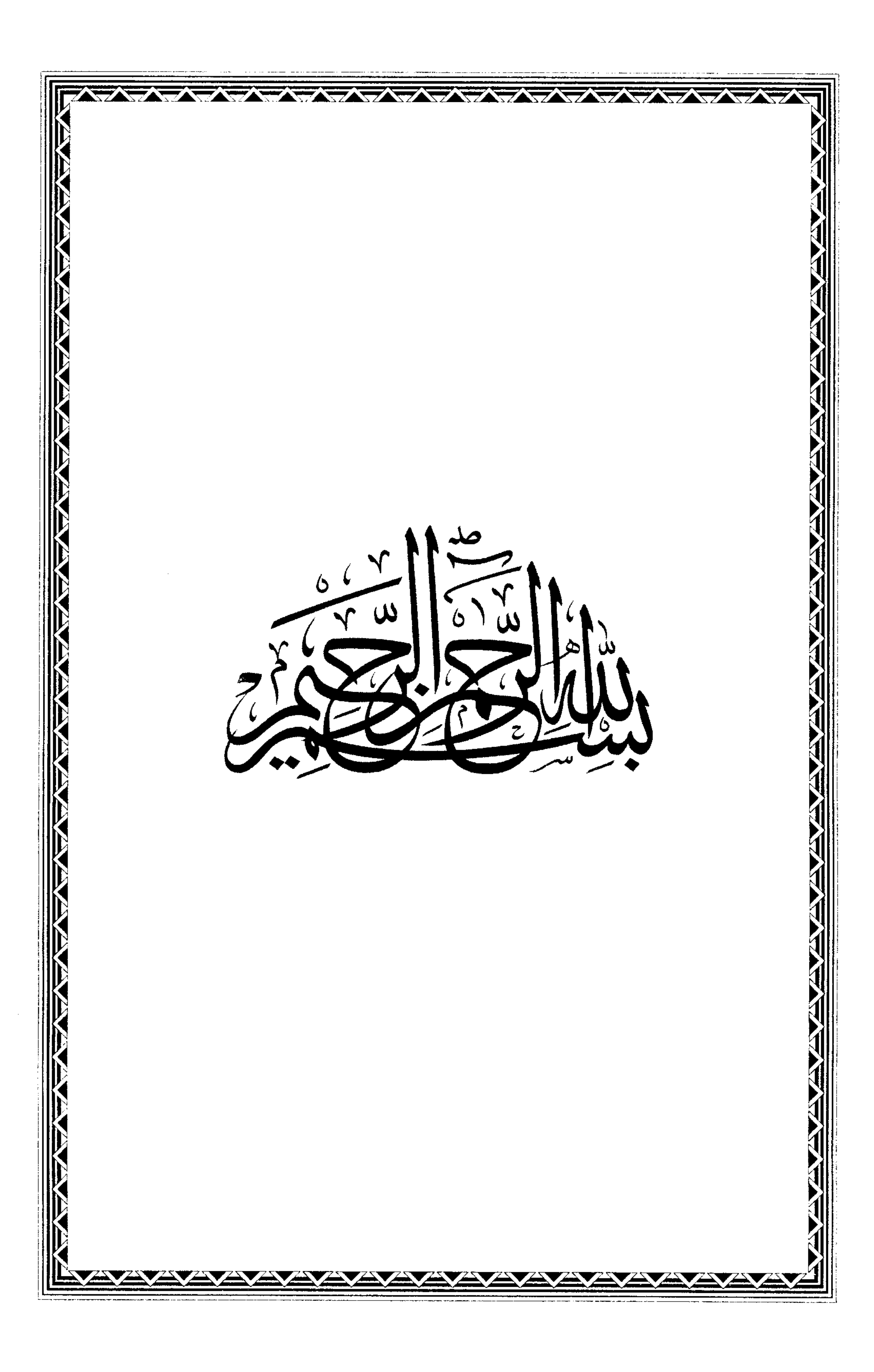
انتقى مادتها وعلق عليها

وخرج أحاديثها

أبو همام محمد بن علي الصومعي البيضاني

عفا الله عنه

دار الاستقامة


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

إنَّ الحمد لله؛ نحمدُه، ونستعينهُ، ونستغفرهُ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحابَتِهِ أجمعين، وعلىٰ من سار علىٰ هديهم واقتفىٰ أثرهم إلىٰ يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ كتاب «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» لأبي حاتم بن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ كتاب جليل القدر كبير النفع جَمَعَ فيه رَحِمَهُ اللَّهُ كثيرًا مما يحتاجه المسلم في حياته من إصلاح للسرائر، وحفظ للسان، والتواضع لإخوانه المسلمين، واجتناب الكبر، وصحبة الأخيار. ومؤاخاتهم، وترك التجسُّسِ، وغير ذلك مما سيجده القارئ الكريم.

وعند قراءتي لهذا الكتاب وقفت علىٰ ما لم أكن أتوقع من جَمْعٍ للفوائد وحشد للدرر مع الأسلوب الجميل لإيصال ذلك إلىٰ قلب القارئ، لا سيَّما أنه رَحِمَهُ اللَّهُ يقدم بين يدي ذلك حديثًا نبويًّا ثم يشرع في شرحه بأسلوبه الجذاب،

فرأيت أن أنتقي منه ما يستفيد منه القارئ لا سيَّما أن كثيرًا من الناس في زماننا هذا ليس لديهم استعداد لقراءة الكتب المسندة، وإنما يريدون شيئًا سهلًا؛ لأنهم لم يعتادوا ذلك، وأكبر دليل علىٰ ذلك: إقبالهم علىٰ كتب بعض المعاصرين التي لا اهتمام لأصحابها بذكر الأدلة من الكتاب والسنة وإنَّما هو الكلام الإنشائي مع الأسلوب الجذاب، وبهذا استطاعوا أن يصلوا إلىٰ قلوب هؤلاء، وهذا هو الحامل لي علىٰ انتقاء مادة هذا الكتاب من كتاب «روضة العقلاء».

❊

عملي في الكتاب

١ – قمت بحذف أسانيد الأحاديث التي يذكرها المؤلف خلا الصحابي فقط.

٢ – أترضَّىٰ عن الصحابي لأن المؤلف لم يكتب ذلك.

٣ – أحذف أسانيد الأشعار إذا كانت مسندةً.

٤ – قمت بتخريج الأحاديث ثم الحكم عليها بما تستحقُّه من صحَّةٍ أو حسنٍ أو ضعف، وتوخيت الاختصار في ذلك.

٥ – قمت بشرح الكلمات الغريبة.

٦ – علقت بعض التعليقات المفيدة.

٧ – صنعت فهرسًا لمواضيع الكتاب.

٨ – ترجمت ترجمة مختصرة لابن حبان.

٩ – ترجمت لبعض الأعلام.

وقد سميت هذا العمل «المنتقىٰ من كتاب روضة العقلاء ونزهة الفضلاء».

أسأل الله العليَّ القديرَ أن ينفعني به يوم لقائه، إنه سميع مجيب الدعوات.

وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين

كتبه

راجي رحمة ربه القدير

أبي همام محمد بن علي الصومعي

البيضاني اليمني الأصل المكي مجاورة

ابن حبان في سطور

هو أبو حاتم الحافظ الإمام العلامة محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد الحنظلي التميمي البستي.

مولده: وُلِدَ في «بُسْت»(١) بعد المائتين والسبعين.

وفاته: توفي سنة ٣٥٤ هـ.

مشايخه: أخذ ابن حبان عن علماء أجلاء، منهم:

١ - أبو الحسن محمد بن عبيد الله بن الجنيد البستي.

٢ - أبو بكر محمد بن عثمان بن سعد الدارمي.

٣ - أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة.

٤ - أبو عبد الرحمن بن شعيب النسائي وغيرهم.

تلاميذه: أخذ عنه العلمَ كثيرٌ منهم:

١ - الحاكم أبو عبد الله الحافظ.

٢ - أبو عبد الله بن منده الأصبهاني.

٣ - أبو علي منصور بن عبد الله الهروي، وغيرهم.

مؤلفاته: لابن حبان عدة مؤلفات، منها:

١ - «التقاسيم والأنواع» المعروف بـ «صحيح ابن حبان».

(١) وهي الآن ضمن أفغانستان.

٢ - «المجروحون».

٣ - «الثقات».

٤ - «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» وهو أصل كتابنا هذا[1].

***

(١) انظر: «طبقات الحفاظ» (٣/ ٨٩ - ٩٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٦/ ٩٢ - ١٠٤)، و«شذرات الذهب» (٣/ ١٦)، و«النجوم الزاهرة» (٣/ ٣٤٢ - ٣٤٣).

مقدمة المصنف في الأصل

الحمد لله المتفرِّد بوحدانية الأُلوهية، المتعزِّز بعظمة الربوبية، القائم علىٰ نفوس العالم بآجالها، والعالم بتقلُّبها وأحوالِها، المانِّ عليهم بتواتر آلائه المتفضِّل عليهم بسوابغ نعمائه، الذي أنشأ الخلق حين أراد بلا معين ولا مشير، وخلق البشر كما أراد بلا شبيه ولا نظير؛ فمضت فيهم بقدرته مشيئته ونفذت فيهم بعزَّته إرادتُه فألهَمَهُم حسنَ الإطلاق وركَّب فيهم تشعُّبَ الأخلاق؛ فَهُم علىٰ طبقات أقدارِهم يمشون، وعلىٰ تَشَعُّب أخلاقِهم يدورون وفيما قضىٰ وقدَّر عليهم يهيمون ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وأشهد أن لا إله إلا الله فاطر السموات العلا ومنشئ الأرَضين والثَّرىٰ، لا مُعَقِّب لحكمه ولا راد لقضائه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ۝٢٣﴾[الأنبياء:٢٣].

وأشهد أن محمدًا عبده المجتبىٰ ورسوله المرتضىٰ، بعثه بالنور المضي والأمر المرضي علىٰ حين فترة من الرسل ودروسٍ من السُّبُل؛ فدفع الطغيان وأكمل به الإيمان وأظهره علىٰ كلِّ الأديان وقمع به أهل الأوثان؛ فصلىٰ الله عليه وسلم ما دار في السماء فلكٌ وما سبح في الملكوت مَلكٌ، وعلىٰ آله أجمعين.

أما بعد: فإن الزمان قد تبيَّن للعاقل تغيُّره ولاح للَّبيب تَبَدُّلُه حيث يبس ضرعه بعد الغزارة وذبَلَ فرعه بعد النضارة ونَحِلَ عوده بعد الرطوبة وبَشِعَ مذاقه بعد العذوبة فنبغ فيه أقوام يدَّعون التَّمَكُّن من العقل باستعمال ضد ما يوجب العقل من شهوات صدورهم وترك ما يوجبه نفس العقل بهجسات

قلوبهم، جعلوا أساس العقل الذي يعقدون عليه عند المعضلات: النفاق والمداهنة، وفروعه عند ورود النائبات حسن اللباس والفصاحة، وزعموا أن من أحكم هذه الأشياء الأربع فهو العاقل الذي يجب الاقتداء به، ومن تخلَّف عن أحكامها فهو الأنوك[١] الذي يجب الازورار عنه . فلما رأيت الرِّعاع[٢] من العَالَم يغترُّون بأفعالهم، والهمج من الناس يقتدون بأمثالهم، دعاني ذلك إلىٰ تصنيف كتابٍ خفيفٍ يشتمل متضمنه علىٰ معنىٰ لطيفٍ مما يحتاج إليه العقلاءُ في أيامهم من معرفة الأحوال في أوقاتهم؛ ليكون كالتذكرة لذوي الحِجَىٰ عند حضرتهم، وكالمعين لأُولي النُّهَىٰ عند غيبتهم، يفوق العَالِمُ به أقرانه، والحافظ له أترابه، ويكون النديم الصادق للعاقل في الخلوات والمؤنس الحافظَ له في الفلوات إن خصَّ به أولياءه فاق به علىٰ نظرائه.

أُبَيِّن فيه ما يحسن للعاقل استعماله من الخصال المحمودة ويقبُح به إتيانه من الخلال المذمومة مع القصد في لزوم الاقتصار وترك الإمعان في الإكثار، ليخفَّ علىٰ حامله وتعِيَهُ أذنُ مُسْتَمِعه؛ لأن فنون الأخبار وأنواع الأشعار إذا اسْتَقصىٰ المجتهد في إطالتها فليسَ يرجو النهاية إلىٰ غايتها، ومن لم يرجُ التمكُّن من الكمال في الإكثار كان حقيقًا أن يقنع بالاختصار. والله الموفق للسداد والهادي إلىٰ الرشاد، وإياه أسأل إصلاح الأسرار وترك المعاقبة علىٰ الأوزار، إنه جواد كريم رءوف رحيم.

***

(١) أي: الأحمق، والنُّوك بالضم: الحُمْق. «النهاية» (٢/ ٨٠٥).

(٢) رعاع الناس: غوغاؤهم وسُقَّاطهم وأخلاطهم. الواحد: رعاعة. «النهاية» (١/ ٦٦٦).

ذِكْرُ الحَثِّ على لُزومِ العَقْلِ وصِفَةِ العَاقِلِ اللَّبِيْبِ

عن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله يحبُّ مكارم الأخلاق ويكره سفسافها**»(١).

إنَّ محبة المرء المكارمَ من الأخلاق وكراهته سفسافها هو نفس العقل، فالعقل به يكون الحظ ويؤنس الغربة وينفي الفاقة ولا مَالَ أفضل منه ولا يتمُّ دين أحدٍ حتىٰ يتمَّ عقله.

العقل نوعان: مطبوع ومسموع.

فالمطبوع منهما كالأرض. والمسموع كالبذر والماء.

ولا سبيل للعقل المطبوع أن يخلص له عمل محصول دون أن يرد عليه العقل المسموع فينبهه من رقدته ويطلقه من مكامنه كما يستخرج البذر، والماء ما في قعور الأرض من كثرة الريع.

فالعقل الطبيعي من باطن الإنسان بموضع عروق الشجرة من الأرض والعقل المسموع من ظاهره كتدَلِّي ثمرة الشجرة من فروعها.

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٤٨) وغيره.

بلفظ: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ كريم، يحب الكرم ومعالي الأخلاق ويبغض سفسافها**»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٣٣٦) برقم (١٣٧٨).

أنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

رأيـــت العقـــل نـــوعَيْنِ ... فمطبـــوعٌ ومـــسموعُ

ولا ينفـــع مـــسموعٌ ... إذا لـــم يـــكُ مطبـــوعُ

كمـــا لا تنفـــع الـــشمسُ ... وضـــوءُ العـــينِ ممنـــوعُ

والعقل والهوىٰ متعاديان؛ فالواجب علىٰ المرء أن يكون لرأيه مسعفًا ولهواه مسوِّفًا[1] فإذا اشتبه عليه أمران اجتنب أقربَهما من هواه؛ لأن في مجانبته الهوىٰ إصلاح السرائر، وبالعقل تصلح الضمائر.

وأنشدني عبد العزيز بن سلمان الأبرش:

إذا تـمَّ عقـلُ المـرءِ تمَّـت أُمـورُهُ ... وتمـــت أياديـــه وتـــمَّ بنـــاؤهُ

فـإن لـم يَكُـنْ عقـلٌ تبـيَّن نقـصُه ... ولـو كـان ذا مـالٍ كثيـرًا عطـاؤه

والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يُسأل، ولا يكثر التماري إلا عند القبول، ولا يسرع الجواب إلا عند التثبت.

والعاقل لا يستحقر أحدًا؛ لأن من استحقر السلطان أفسد دنياه، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه، ومن استحقر الإخوان أفنىٰ مروءته، ومن استحقر العام[2] أذهب صيانته.

أنشدني المنتصر بن بلال بن المنتصر الأنصاري:

ألـم تـرَ أن العقـلَ زَيـنٌ لأهْلـهِ ... وأن كَمَـالَ العقـلِ طـولُ التجـاربِ

---

(١) أي: يؤخره.

(٢) يعني: عامة الناس.

وقد وعظ الماضي من الدهر ذا النُّهىٰ ويـــزداد في أيامــــه بالتجـــارب

والعاقل يقيس ما لم يرَ من الدنيا بما قد رأىٰ، ويضيف ما لم يسمع منها إلىٰ ما قد سمع، وما لم يصب منها إلىٰ ما قد أصاب، وما بقي من عمره بما فنيَ، وما لم ينل منها بما قد أُوتيَ، ولا يتكل علىٰ المال وإن كان في تمام الحال؛ لأنَّ المال يَحِلُّ ويرتحل والعقل يقيم ولا يبرح، ولو أنَّ العقل شجرة لكانت من أحسن الشجر، كما أن الصبر لو كان ثمرة لكان من أكرم الثمر، والذي يزداد به العاقل من نماء عقله هو التَّقَرُّبُ من أشكاله والتباعد من أضداده.

مجالسة العقلاء لا تخلو من أحد معنيين:

إما تذكر الحالة التي يحتاج العاقل إلىٰ الانتباه لها.

أو الإفادة بالشيء الخطير الذي يحتاج الجاهل إلىٰ معرفته.

فقربُ العاقل غُنْمٌ لأشكاله وعِبْرَة لأضداده علىٰ الأحوال كلها، ولا يجب لمن تسمَّىٰ به أن يتدلل إلا علىٰ من يحتمل دلاله ويُقْبِل إلا علىٰ من يحب إقباله، ولو كان للعقل أبَوَان لكان أحدهما الصبر، والآخر التَّثَبُّت.

جعلنا الله ممن رُكِّبَ فيه حُسْنُ وجود العقل فسلك بتمام النّعم مسلك الخصال التي تُقَرِّبُهُ إلىٰ ربِّهِ في دارَي الأمَدِ والأبَدِ؛ إنه الفعَّال لما يريد.

ذِكْرُ إصْلاحِ السَّرائِرِ بِلُزُومِ تقْوى اللهِ

عن أسامة بن شريك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما كره الله منك شيئًا فلا تفعله إذا خلوت**»(١).

الواجب علىٰ العاقل الحازم أن يعلم أن للعقل شُعبًا من المأمورات والمزجورات لا بُدَّ لَهُ من معرفتها واستعمالها في أوقاتها لمباينة العوام وأوباش الناس بها.

فأول شُعَبِ العقل هو لزوم تقوىٰ الله وإصلاح السَّريرة؛ لأن من صَلح جُوَّانيُّهُ(٢) أصلح الله برَّانيَّهُ(٣) ومن فسد جوَّانيه أفسد الله برانيَّه، ولقد أحسن الذي يقول:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقلْ ... خلوتُ ولكن قُلْ عَلَيَّ رَقيبُ

ولا تحسَبَنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً ... ولا أنَّ ما يخفىٰ عليه يَغِيبُ

ألَم ترَ أنَّ اليوم أسرعُ ذاهبٍ ... وأن غدًا للناظرينَ قريبُ

والواجب علىٰ العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته والقيام بحراسة قلبه،

---

(١) الحديث ضعيف؛ لأن في سنده مؤمل بن إسماعيل، وأورده الهيثمي في «موارد الظمآن» برقم (٢٤٩٨)، وحسنه الألباني في «صحيح موارد الظمآن» برقم (٢١١٦) بشواهده.

(٢) أي: باطنه. «النهاية» (١/ ٣١٣).

(٣) أي: ظاهره. «النهاية» (١/ ٣١٣).

عند إقباله وإدباره وحركته وسكونه؛ لأن تكدُّر الأوقات وتنغُّص اللَّذَّات لا يكون إلا عند فساده، ولو لم يكن لإصلاح السرائر سببٌ يؤدي العاقلَ إلىٰ استعماله إلا إظهار الله عليه كيفية سريرته خيرًا كان أو شرًّا لكان الواجب عليه قلةَ الإغضاء عن تعاهدها.

أنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغداديُّ:

وإذا أعلنتَ أمرًا حسنًا فليكن أحسن منه ما تُسِرّ

فَمُسِرُّ الخيرِ موسومٌ به ومُسِرُّ الشَّرِّ موسومٌ بِشَرّ

الواجب علىٰ العاقل أن يأخذ مما عنده لما بعده من التقوىٰ والعمل الصالح بإصلاح السريرة ونفي الفساد عن خلل الطاعات عند إجابة القلب وإبائه، فإذا كان صحة السبيل في إقباله موجودًا أنفذه بأعضائه وإن كان عدم وجوده موجودًا كَبَحَه عنها؛ لأنَّ بصفاء القلب تصفو الأعضاء.

وأنشدني منصور بن محمد الكُرَيْزي:

وما المرءُ إلَّا قلبُهُ ولسانُهُ إذا حُصِّلتْ أخبارُه ومداخلُهْ

إذا ما رِدَاءُ المرء لم يكُ طاهرًا فَهَيْهاتَ أن ينقيْهِ بالماء غاسِلُهْ

وما كلُّ من تخشىٰ ينالُك شرُّهُ وما كلُّ ما أَمَّلْتَهُ أنتَ نائلُهْ

الواجب علىٰ العاقل أن لا ينسىٰ تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يورث القساوة له عليه؛ لأن بصلاح المَلِكِ تصلح الجنود وبفساده تفسد الجنود[1] فإذا اهتم بإحدىٰ الخصلتين تجنب أقربهما من هواه وتَوَخَّىٰ أبعدهما

---

(١) دليل ذلك ما جاء عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا =

من الردىٰ، ولقد أحسن من يقول:

وإذا تــــشاجر في فـــؤادك مـــرةً   أمــرانِ فاعْمَــد للأعــفِّ الأجمـــلِ
وإذا هَمَمْــتَ بــأمرِ ســوءٍ فاتَّئِــدْ   وإذا هَمَمْــتَ بــأمر خيــرٍ فافعـــلِ

لنْ تصفوَ من وجود الدَّرن[1] فيها حتىٰ تكون الهمومُ في الله همًّا واحدًا، فإذا كان كذلك كُفي الهم في الهموم إلا الهم الذي يؤول متعقبه إلىٰ رضا الباري جلَّ وعزَّ بلزوم تقوىٰ الله في الخلوة والملأ إذ هو أفضل زادِ العقلاء في دَارَيْهِم وأجلُّ مطيَّة[2] الحكماء في حالَيْهِم.

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

عليــكَ بتقــوىٰ الله في كــلِّ أمْــرِهِ   تجــد غِبَّــهُ يــوم الحــساب المطــوَّلِ
ألا إن تقــوىٰ الله خيــر مغبَّـــةٍ[3]   وأفـــضل زاد الظــاعنِ المترحِّـــلِ

=

وفيه: «ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كلُّه وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

(١) الدرن: الوسخ. «النهاية» (١/ ٥٦٦).

(٢) المطية: المركوب. وانظر: «النهاية» (٢/ ٦٦٥).

(٣) غِبُّ الأمر ومغبته: عاقبته وآخره. «لسان العرب» (٥/ ١) مادة: «غبب».

ذِكْرُ الحَثِّ على لُزومِ العِلْمِ والمُداوَمَةِ على طَلَبِهِ

عن زر بن حبيش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي ، فقال: ما جاء بك؟ قلت: جئت أنيط العلمَ، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من خارج يخرجُ من بيتِهِ يطلُبُ العلمَ إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضًا بما يَصْنَعُ**»[١].

الواجب علىٰ العاقل إذا فرغ من إصلاح سريرته أن يثني بطلب العلم والمداومة عليه؛ إذ لا وصول للمرء إلىٰ صفاء شيء من أسباب الدنيا إلا بصفاء العلم فيه، وحكم العاقل أن لا يقصر في سلوك حالةٍ توجب له بسط الملائكة أجنحتها رضًا بصنيعه ذلك، ولا يجب أن يكون متأملًا في سعيه الدّنوَّ من السلاطين أو نوال الدنيا به فما أقبح بالعالم التذلُّلَ لأهل الدنيا.

قال الفضيل بن عياض[٢]: «ما أقبح بالعالم يؤتىٰ إلىٰ منزله فيقال: أين العالم؟ فيقال: عند الأمير[٣] أين العالم؟ فيقال: عند القاضي ما للعالم وما

---

(١) حديث حسن وقد رواه أحمد (٤/ ٢٣٩ – ٢٤٠) وغيره.
وانظر: «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١/ ٤٢٧ – ٤٣٠) لشيخنا الوادعي رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) هو الفضيل بن عياض الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو علي التميمي اليربوعي المروزي شيخ الحرم «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٨).

(٣) وإني لأعجب لطلبة علم هذا هو ديدنهم وبهذا صرفوا عن العلم وأهله وإذا حضروا حلق العلم يحضرون في كلِّ شهر مرةً أو مرتين وهم بهذا يغالطون أنفسهم.

للقاضي؟ وما للعالم وما للأمير؟ ينبغي للعالم أن يكون في مسجده يقرأ في مصحفه».

وأنشدني محمد بن محمد بن عبد الله بن زنجي:

وفي العلم والإسلام للمرء وازعٌ ... وفي ترك طاعاتِ الفؤاد المتيَّم

بصائرُ رشدٍ للفتى مستبينةٌ ... وأخلاقُ صدقٍ علْمُها بالتَّعَلُّم

العاقل لا يبيع حظ آخرته بما قصد في العلم لما يناله من حطام هذه الدنيا؛ لأن العلم ليس القصد فيه نفسه دون غيره؛ لأن المبتغىٰ من الأشياء كلِّها نفعها لا نفسها، والعلم ونفع العلم شيئان، فمن أغضىٰ عن نفعه لم ينتفع بنفسه وكان كالذي يأكل ولا يشبع والعلم له أوَّلٌ وآخر.

قال سفيان[1]: أول العلم الإنصات، ثم الاستماع، ثم الحفظ، ثم العمل به، ثم النشر.

وأنشدني الأبرش:

تعلَّم فليسَ المرءُ يولدُ عالمًا ... وليس أخو علم كمن هو جاهلُ

وإنَّ كَبيرَ القَوْمِ لا عِلْمَ عِنْدَه ... صغيرٌ إذَا التفَّتْ عليه المَحَافِلُ

العاقل لا يشتغل في طلب العلم إلا وقصده العملُ به؛ لأن من سعىٰ فيه لغير ما وصفنا ازداد فخرًا وتجبرًا وللعمل تركًا وتضييعًا، فيكون فساده في المتأسِّين به فيه أكثر من فساده في نفسه ويكون مثلُهُ كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الإمام شيخ الإسلام سيد الحفاظ أبو عبد الله الثوري. «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٥٢)، وانظر: «الجامع» (١/ ٢٩٢ – ٢٩٣) للخطيب.

﴿ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾[١].

أنشدني أحمد بن محمد الصنعاني أنشدني محمد بن عبد الله العراقي:

عُنوا يطلبون العلم في كلِّ بلدةٍ ... شبابًا فلما حَصَّلوا وحشروا

وصحَّ لهم إسنادُهُ وأُصولُهُ ... وصاروا شيوخًا ضَيَّعُوهُ وأدْبَرُوا

وَمَالُوا علىٰ الدنيا فهم يحلبونها ... بأخلافِهَا مفتوحها لا يُصَرَّرُ

فيا علماءَ السوءِ أينَ عُقولُكُمْ ... وأين الحديثُ المُسْنَدُ المُتَخَيَّرُ[٢]

يجب علىٰ العاقل أن لا يطلب من العلم إلا أفضله؛ لأنَّ الازدياد من العلم آثَرُ عند العاقل من الذكر بالعلم، والعلم زينٌ في الرخاء ومنجاةٌ في الشِّدَّة، ومن تعلَّم ازداد كما أن من حَلُمَ ساد، وفضل العلم في غير خير مهلكة كما أن كثرة الأدب في غير رضوان الله موبقةٌ، والعاقل لا يسعىٰ في فنونه إلا بما هو أجدىٰ عليه نفعًا في الدارين معًا، وإذا رُزق منه الحظ لا يبخل بالإفادة، وما رأيت أحدًا قط بخل بالعلم إلا لم ينتفع بعلمه، وكما لا يُنتفع بالماء الساكن تحت الأرض ما لم يَنْبَعْ، ولا بالذهب الأحمر ما لم يُستخرج من معدنه، ولا باللؤلؤ النفيس ما لم يخرج من بحره، كذلك لا ينتفع بالعلم ما دام مكنونًا لا يُنشَر ولا يفاد[٣].

---

(١) سورة النحل الآية: ٢٥.

(٢) رحم الله شيخنا الوادعي، كان كثيرًا ما يأمر بعض طلبة العلم أن يقول هذه الأبيات بصوت مرتفع أمام طلبة العلم ليُحَذِّرهم من مغبة الانصراف عن العلم والإقبال علىٰ الدنيا بل جعل هذه الأبيات من محفوظات دار الحديث بدماج رحم الله أبا عبد الرحمن، وحفظ تلكم الدار والقائمين عليها من كيد أعدائها.

(٣) ولقد سمعت شيخنا الوادعي رَحِمَهُ اللهُ كثيرًا وهو ينصح طلابه الذين استفادوا أن ينشروا العلم، وربما غضب علىٰ من امتنع وعنده الأهلية لذلك ويقول: إن بركة العلم بالإنفاق أو نحو هذا.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الناس عَالِمٌ ومُتَعَلِّمٌ ولا خَيْرَ فيما بين ذلك».

وأنشدني الكُرَيْزِي:

أَفِـــدِ العلـــمَ ولا تَبْخَـــلْ بِـــهِ ... وإلـــىٰ عِلْمِـــكَ عِلْمًـــا فَاسْـــتَفِدْ

استفِدْ مَـا اسْـطَعْتَ مـن علـمٍ وكـنْ ... عـــاملًا بـــالعلم والنـــاسَ أفِـــدْ

مـــن يُفِـــدْهُمْ يجْـــزِهِ اللهُ بـــه ... وســـيُغني اللهُ عمَّـــن لـــم يُفِـــد

لـــيْسَ مَـــنْ نَـــافَسَ فيـــهِ عَـــاجِزًا ... إنمـــا العـــاجِزُ مَـــنْ لا يجْتهِـــدْ

ذِكْرُ الحَثِّ على لُزُومِ الصَّمْتِ وحِفْظِ اللِّسَانِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ**»(١).

الواجب علىٰ العاقل إذا ركب المطيَّتين - اللَّتَيْنِ ذكرتهما قبلُ - إصلاح السريرةِ ولزوم العلم - أن يبلغ مجهوده حينئذٍ في حفظ اللسان حتىٰ يستقيم له، إذ اللسانُ هو المُورِدُ للمرءِ موارد العطب(٢)، والصمت يكسب المحبةَ والوقار، ومن حفظ لسانَه أراح نفسه، والرجوع عن الصمت أحسنُ من الرجوع عن الكلام والصمت مَنَامُ العقل والمنطق يقظته.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لا خَيْرَ في الحياة إلا لأحد رجلين منصتٍ واعٍ أو متكلمٍ عالمٍ».

الواجب علىٰ العاقل أن لا يغالب الناس علىٰ كلامهم ولا يعترض عليهم فيه؛ لأن الكلام وإن كان في وقته حُظوةً جليلةً فإن الصمت في وقته مرتبة عالية، ومن جُهِّلَ بالصمت عَيّ بالمنطق، والإنسان إنما هو صورة ممثلة أو ضالة مهملة لولا اللِسان، والله جلَّ وعزَّ رفع جَارِحَةَ اللِّسانِ علىٰ سائر الجوارح

---

(١) الحديث بهذا اللفظ، رواه ابن ماجه برقم (٣٩٧١)، بسند صحيح، وأصله في البخاري برقم (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

(٢) العطب: هو الهلاك. انظر: «النهاية» (٢/ ٢٢١).

فليس منها شيءٌ أعظم أجرًا منه إذا أطاع ولا أعظم ذنبًا إذا جنىٰ.

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زَنجي البغداديُّ:

لئنْ كانَ يَجْنِي اللَّوْمَ ما أنتَ قائلٌ ولم يَكُ منه النفعُ فالصَّمْتُ أيسَرُ

فلا تُبْدِ قولًا من لِسَانِكَ لم يَرُض مواقِعَهُ من قبلِ ذاك التفكُّرُ

الواجب علىٰ العاقل أن يلزم الصمت إلىٰ أن يلزمه التكلُّم فما أكثر من ندِمَ إذا نطق وأقل من يندم إذا سكت! وأطول الناس شقاءً وأعظمهم بلاءً من ابْتُلِيَ بلسانٍ مطلَقٍ وفؤاد مُطْبَقٍ.

واللِّسان فيه عَشْرُ خصالٍ يجب علىٰ العاقلِ أن يَعْرِفَهَا ويَضَعَ كلَّ خَصْلَةٍ منها في موضِعِهَا: هُو أداة يظهر بها البيانُ، وشاهد يخبر عن الضمير، وناطقٌ يُرَدُّ بِهِ الجواب، وحاكمٌ يُفْصَلُ به الخطاب، وشافع تُدرك به الحاجات، وواصف تُعْرَفُ به الأشياءُ، وحاصد يُذْهِبُ الضغينة(١)، ونازع يجذبُ المودة، ومُسَلٍّ يُذَكِّي القلوب، ومُعَزٍّ تُرَدُّ به الأحزان.

وأنشدني البغداديُّ محمد بن عبد الله بن زَنْجِيٍّ:

أنْتَ مِن الصَّمْتِ آمِنُ الزَّلَلِ ومِنْ كثيرِ الكَلَامِ في وَجَلِ

لا تَقُلِ القَوْلَ ثم تُتْبِعُه يا ليتَ ما كنتُ قلتُ لَمْ أقُلِ

لسان العاقل يكون وراء قلبه فإذا أراد القولَ رجع إلىٰ القلب فإن كان له قال، وإلا فلا، والجاهل قلبه في طرف لسانه ما أتىٰ علىٰ لسانه تكلم به، وما عَقِلَ دِيْنَهُ من لم يحفظ لِسَانَه، واللِّسان إذا صلح تبيَّن ذلك علىٰ الأعضاء، وإذا

(١) الضغينة: الحقد والعداوة والبغضاء. «النهاية» (٣/ ٨٥).

فسد كذلك، وأنشدني الكُرَيْزيُّ:

اسْتُرِ العَيَّ ما استَطَعْتَ بصَمْتٍ إن في الصَّمْتِ راحةً للصَّموتِ

واجعلِ الصَّمْتَ إن عَيِيتَ جوابًا رُبَّ قولٍ جوابُهُ في السُّكوتِ

العاقل يحفظ أحواله من ورود الخلل عليْها في الأوقات، وإن من أعظم الخلل المفسد لصحة السرائر والمُذهِب لصلاح الضمائر الإكثار من الكلام وإنْ أُبيحَ له كثرة النطق ولا سبيل للمرء إلىٰ رعاية الصمت إلا بترك ما أُبيح له من النطق(١).

***

(١) وقد كان سَلَفُنَا حريصِين علىٰ قلة الكلام إلا فيما كان فيه منفعة لهم.

روىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت وآداب اللسان» (٧/ ٥٩ - ٨٠) ضمن «موسوعة الإمام ابن أبي الدنيا» من طريق خلف بن تميم قال: حدثنا أبو إسحاق الفزاري قال: كان إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ يطيل السكوت فإذا تكلَّم ربما انْبَسَط قال: فأطال ذات يوم السكوتَ فقلت: لو تكَلَّمت؟ فقال: الكلام علىٰ أربعة وجوهٍ: من الكلام كلامٌ لا ترجو منفعتَهُ، وتخشىٰ عاقبتَهُ، والفضل في هذا السلامة منه، ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعتَهُ ولا تخشىٰ عاقبتَهُ، فأقل ما لَكَ في تَرْكِهِ خِفَّةُ المُؤْنَةِ علىٰ بدنك، ولسانك، ومن الكلام كلامٌ لا ترجو منفعتَهُ ولا تأمن عاقبته فهذا قد كُفِيَ العاقلُ مُؤْنَتَهُ، ومن الكلام كلامٌ ترجو مَنْفَعَتَهُ وتأمن عاقبتَهُ فهذا الذي يجب عليك نشرُهُ، قال خَلَفٌ: فقلت لأبي إسحاق: أراه قد أَسْقَطَ ثلاثة أرباع الكلام؟ قال: نعم.

ذِكْرُ الحَثِّ على لُزُومِ الصِّدْقِ ومُجَانبَةِ الكَذِبِ

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عليكمْ بالصِّدْقِ؛ فإنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلىٰ البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهدِي إلىٰ الْجَنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلِ لَيَصْدُقُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِندَ اللهِ صدِّيقًا وإيَّاكُمْ والكذِبَ، فإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلىٰ الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلىٰ النَّارِ، وَإنَّ الرَّجُلَ يَكْذِبُ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عندَ اللهِ كَذَّابًا»(١).

إن الله جلَّ وعلا فَضَّلَ اللِّسان علىٰ سائر الجوارح ورفع درجته وأبان فضيلته بأن أنطقه من بين سائر الجوارح بتوحيده فلا يجب للعاقل أن يُعَوِّدَ آلةً خلقها الله للنطق بتوحيده بالكذب بل يجب عليه المداومة برعايته بلزوم الصدق وما يعود عليه نفعه في دَارَيهِ، لأن اللسان يقتضي ما عُوِّد إنْ صِدْقًا فصدقًا وإنْ كذبًا فكذبًا(٢).

ولقد أحسن الذي يقول:

عَوِّدْ لِسَانَكَ قَوْلَ الخَيْرِ تَحْظَ بِهِ ... إنَّ اللِّسَانَ لِمَا عَوَّدتَ معتَادُ

موكَّلٌ بتقاضي ما سَنَنْتَ لَهُ ... فاخْتَرْ لِنَفْسِكَ وانظر كَيْفَ تَرْتَادُ

---

(١) متفق عليه.

(٢) ما رأيت أحدًا أشدَّ تحذيرًا لطلابه من الكذب من شيخنا ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله تعالىٰ، كثيرًا ما يحذر في دروسه طلبته من ذلك.

كلُّ شيءٍ يُستعارُ ليُتَجَمَّلَ به سَهْلٌ وُجودُهُ خلا اللِّسان فإنه لا يُنبئ إلا عمَّا عُوِّد، والصدق ينجي والكذب يردي، ومن غلب لسانه أمَّرَهُ قومُه، ومن أكثر الكذب لم يترك لنفسه شيئًا يصدق به، ولا يكذب إلا من هانت عليه نفسه.

قال محمد بن كعب القرظي[1]: إنما يكْذِبُ الكاذب من مهانة نفسه، وأنشدني الكُرَيْزي:

كذبتَ ومن يكذبْ فإن جزاءه ... إذا ما أَتَىٰ بالصِّدْقِ أن لا يُصَدَّقا

إذا عُرِف الكذَّابُ بالكِذْبِ لم يَزَلْ ... لدَىٰ الناس كذَّابًا وإن كان صادقا

ومن آفةِ الكذابِ نسيانُ كِذْبِهِ ... وَتَلْقَاهُ ذا فِقْهٍ إذا كان حاذقا

لو لم يكن للكذب من الشَّيْنِ إلا إنزاله صَاحِبَهُ بحيث إن صَدَقَ لم يُصَدَّقْ لكان الواجب علىٰ الخلق كافةً لزوم التثبت بالصِّدق الدائم وإنَّ من آفة الكذب أن يكون صاحبه نسيًّا[2]، فإذا كان كذلك كان المنادي علىٰ نفسه بالخزي في كل لحظةٍ وطرفةٍ.

أنشدني محمد بن عبد الله البغداديُّ:

إذا ما المَرْءُ أخطأهُ ثلاثٌ ... فَبِعْهُ ولو بكفٍّ من رَمادِ

سَلامَةُ صدرِهِ والصِّدْقُ منه ... وكتمانُ السرائرِ في الفؤادِ

---

(١) هو محمد بن كعب بن سليم بن أسد أبو حمزة القُرظبي المدني وكان قد نزل الكوفة مُدَّةً ثقة عالم من الثالثة ولد سنة أربعين علىٰ الصحيح وَوَهِمَ من قال: ولِدَ في عهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد قال البخاري: إن أباه كان ممن لم ينبت من سبي بني قريظة، مات محمد سنة عشرين وقبل ذلك. «تقريب التهذيب» ترجمة رقم (٦٢٩٧)، من ط دار العاصمة.

(٢) أي: كثير النِّسيان.

الصِّدق يرفع المرء في الدارين كما أن الكذب يهوي به في الحالين، ولو لم يكن للصدق خصلة تحمد إلا أن المرء إذا عُرِف به قُبِلَ كذبُه وصار صدقًا عند من يسمعه لكان الواجب علىٰ العاقل أن يبلغ مجهوده في رياضة لسانه حتىٰ يستقيم له علىٰ الصِّدق ومجانبة الكذب، والعيُّ في بعض الأوقات خير من النطق؛ لأن كلَّ كلام أخطأ صاحبه موضعه فالعي خيرٌ منه.

❊

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ الحَياءِ وَتركْ القُحَةِ[1]

عن أبي مسعود[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ مِمَّا أَدْرَكَ الناسُ منْ كلامِ النُّبُوَّةِ الأُولىٰ: إذا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»[3].

الواجب علىٰ العاقل لزوم الحياء؛ لأنه أصل العقل وبذر الخير، وتركه أصل الجهل وبذر الشَّر، والحياء يدل علىٰ العقل كما أنَّ عدمه دالٌّ علىٰ الجهل، ومن لم ينصفِ الناسَ منه حياؤه لم ينصفه منه قحَّته، وأنشدني محمد ابن عبد الله البغداديُّ:

إذا قَلَّ ماء الوجهِ قلَّ حياؤه ... فلا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤهُ
حياؤك فاحْفَظْهُ عليكَ فإنَّما ... يدلُّ علىٰ وجهِ الكريمِ حَيَاؤهُ

الحياء: اسم يشتمل علىٰ مجانبة المكروه من الخصال والحياء حياءَان:

أحدهما: استحياء العبد من الله جلَّ وعلا عند الاهتمام بمباشرة ما حُظِرَ عليه.

والثاني: استحياء من المخلوقين عند الدخول فيما يكرهون من القول والفعل معًا. والحياءان جميعًا محمودان إلا أنَّ أحدهما فرض والآخر فضل،

---

(١) القحة: هي الجرأة وقلة الحياء كما في «لسان العرب».

(٢) في المطبوع نسخة المكتبة العصرية ابن مسعود وهو خطأ.

(٣) رواه البخاري برقم (٣٤٨٣).

فلزوم الحياء عند مجانبة ما نهىٰ الله عنه فرض، ولزوم الحياء عند مقارفة ما كره الناس فضل.

فإذا لزم المرءُ الحياءَ كانت أسباب الخير منه موجودةً، كما أن الوَقِح إذا لزم البذاء كان وجود الخَير منه معدومًا، وتواتر الشَّرِّ منه موجودًا؛ لأنَّ الحياءَ هو الحائل بين المرءِ وبين المزجورات كلها، فبقوَّة الحياء يضعف ارتكابه إياها وبضعف الحياء تقوىٰ مباشرته إياها، ولقد أحسن الذي يقول:

وَرُبَّ قبيحةٍ ما حال بيني … وبينَ ركوبها إلا الحياءُ

فكان هو الدواءَ لها ولكنْ … إذا ذهبَ الحياءُ فلا دواءُ

الواجب علىٰ العاقل أن يُعَوِّد نفسه لزوم الحياء من الناس، وإن من أعظم بركته تعويد النفس ركوب الخصال المحمودة ومجانبتها الخلال المذمومة، كما أن من أعظم بركة الحياء من الله الفوز من النار بلزوم الحياء عند مجانبة ما نهىٰ الله عنه؛ لأنَّ ابن آدم مطبوع علىٰ الكرم واللؤم معًا في المعاملة بينه وبين الله والعشرة بينه وبين المخلوقين، وإذا قَوِي حياؤه قوي كرمه وضعف لؤمه، وإذا ضَعُفَ حياؤه قوي لؤمه وضعفه كرمه.

إن المرء إذا اشتد حياؤه صان عرضه ودفن مساويَه ونشر محاسنه، ومن ذهب حياؤه ذهب سروره، ومن ذهب سروره هان علىٰ الناس ومُقِتَ، ومن مُقِتَ أُوذيَ، ومن أُوذيَ حَزِنَ، ومن حَزِنَ فَقَدَ عَقْلَهُ، ومن أُصيب في عقله كان أكثر قوله عليه لا له، ولا دواءَ لمن لا حياء له، ولا حياء لمن لا وفاء له، ولا وفاء لمن لا إخاءَ له، ومن قل حياؤه صنع ما شاء وقال ما أَحَبَّ.

***

ذِكْرُ الحثّ على لُزُومِ التَّوَاضُعِ وَمُجَانَبَةِ الكِبْرِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مالٍ، ولا زادَ اللهُ عبدًا بعفوٍ إلا عِزًّا، ولا تَوَاضَعَ أحَدٌ للهِ إلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»(١).

الواجب علىٰ العاقل لزوم التواضع ومجانبة التكبُّر ولو لم يكن في التواضع خصلة تُحْمَد إلا أنَّ المرء كلَّما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعةً لكان الواجب عليه أن لا يتزيَّا بغيره، والتواضع تواضعان: أحدهما: محمود، والآخر: مذموم:

والتواضع المحمود: ترك التطاول علىٰ عباد الله والإزراء بهم.

والتواضع المذموم: هو تواضع المرء لِذِي الدُّنيا رغبةً في دنياه.

فالعاقل يلزم مفارقة التواضع المذموم علىٰ الأحوال كلِّها، ولا يفارق التواضع المحمود علىٰ الجهات كلها.

التواضع يرفع للمرء قدرًا، ويعظم له خطرًا(٢)، ويزيده نُبْلًا. والتواضع لله

---

(١) رواه مسلم برقم (٢٥٨٨)، إلا أنه عنده: «**وما زاد**»، بدل: «**ولا زاد**»، و«**ما تواضع**»، بدل: «**ولا تواضع**».

(٢) أي: حظّ ونصيب. «النهاية» (١/ ٥٠٤).

جلَّ وعزَّ علىٰ ضربين:

أحدهما: تواضع العبد لربه عندما يأتي من الطاعات غير معجب بفعله ولا راءٍ له عنده حالةً توجب بها أسباب الولاية إلا أن يكون المولىٰ جلَّ وعزَّ هو الذي يتفضل عليه بذلك، وهذا التواضع هو السبب الدافع لنفس العُجْب عن الطاعات.

والتواضع الآخر: هو ازدراء المرء لنفسه واستحقاره إياها عند ذكره ما قارف من المآثم حتىٰ لا يرىٰ أحدًا من العالم إلا ويرىٰ نفسه دونه في الطاعات وفوقه في الجنايات.

العاقل يلزم مجانبة التَّكبُّر لما فيه من الخصال المذمومة:

أحدها: أنه لا يتكبر علىٰ أحد حتىٰ يعجب بنفسه ويرىٰ لها علىٰ غيرها الفضل.

والثانية: ازدراؤه بالعَالَمِ؛ لأن من لم يستحقر الناس لم يتكبَّر عليهم وكفىٰ بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان طغيانًا.

والثالثة: منازعة الله جلَّ وعلا في صفاته إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله جلَّ وعلا، فمن نازعه إحداهما ألقاه في النار إلَّا أن يتفضل عليه بعفوه(١).

ولقد أحسن الذي يقول:

التِّيهُ مفسدةٌ للدِّين مَنْقَصَةٌ ... لِلْعَقْلِ مَهْتَكَةٌ لِلْعِرْضِ فانْتَبِهِ

لا تشرَهَنَّ فإنَّ الذُّلَّ في الشَّرَهِ ... والعزَّ في الحِلْمِ لا في الطَّيشِ والسَّفَهِ

---

(١) يشير إلىٰ ما رواه مسلم (٢٦٢٠)، مرفوعًا «العزُّ إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته».

لا يَمتنع من التواضع أحد، والتواضع يكسب السلامة ويورث الأُلفة ويرفع الحقد ويذهب الصد، وثمرة التواضع المحبة كما أن ثمرة القناعة الراحة، وإنَّ تَوَاضُعَ الشريفِ يزيد في شرفه كما أن تكبُّر الوضيع يزيد في ضعته، وكيف لا يتواضع من خُلِقَ من نطفةٍ مَذِرةٍ وآخره يعود جيفةً قَذِرَة وهو بينهما يحمل العَذِرَة.

* * *

ذِكْرُ اسْتِحْبَاب التَّحَبُّبِ إِلَىٰ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ مُقارَفَةِ المَأْثَم

عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**يحرمُ عَلَىٰ النَّارِ كلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ**»(١).

الواجب علىٰ العاقل أن يتحبَّبَ إلىٰ الناس بلزوم حسن الخلق، وترك سوء الخلق لأن «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما تذيب الشمس الجليد، وإن الخلق السَّيئ ليفسد العمل كما يفسد الخلُّ العسلَ»(٢) وقد تكون في الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها وخلق سَيِّئٌ فيفسد الخلق السَّيِّئُ الأخلاقَ الصالحة كُلَّها.

قال محمد بن إبراهيم اليعمري:

حَافِظ علىٰ الخُلُقِ الجَمِيلِ ومُرْ بِهِ ... مَا بِالْجَمِيلِ وبِالْقَبِيحِ خفاءُ

إنْ ضاقَ مَالُكَ عن صَدِيقِكَ فالْقَهُ ... بالبِشْرِ مَنْكَ إذا يَحِينُ لِقاءُ

التحبُّب إلىٰ الناس أسهل ما يكون وجهًا، وأظهر ما يكون بِشْرًا، وأخصر ما يكون أمرًا، وأرفق ما يكون نهيًا، وأحسن ما يكون خُلُقًا، وألْيَن ما يكون كنَفًا، وأوسع ما يكون يدًا، وأدفع ما يكون أذًىٰ، وأعظم ما يكون احتمالًا، فإذا كان المرء بهذا النعت لا يَحْزَنُ من يحبه ولا يَفْرَحُ من يحسده لأن من جعل رضاه

(١) رواه أحمد (١/ ٤١٥)، وغيره، في سنده عبد الله بن عمرو الأزدي مجهول، بيد أن له شواهد يرتقي بها إلىٰ الحسن وقد ذكرها الألباني في «الصحيحة» برقم (٩٣٨).

(٢) جاء مرفوعًا، ولم يثبت. انظر: «الضعيفة» برقم (٤٤٠).

تبعًا لرضا الناس وعاشرهم من حيث هم استحق الكمال بالسؤدَدِ.

وأنشدني عليُّ بن محمدٍ البَّسَامي:

أُعاشِرُ مَعْشَرِي في كلِّ أمرٍ بأحسن ما رأيتُ وما رأيتُ

وأجتنب المقابِحَ حيثُ كانَتْ وأترُكُ ما هويتُ وما فَرَيْتُ

حاجة المرء إلىٰ الناس مع محبتهم إياه خير من غناه عنهم مع بغضهم إياه، والسبب الداعي إلىٰ صدِّ محبتهم له: هو التضايق في الأخلاق وسوء الخلق لأن من ضاق خلقه سَئِمَه أهلُه وجيرانه وَاسْتَثْقَلَهُ إخوانه فحينئذٍ تمَنَّوا الخلاص منه ودعوا بالهلاك عليه.

الاسْتِثْقال من الناس يكون سببه شيئان:

أحدهما: مقارفة المرء ما نهىٰ الله من المآثم؛ لأن من تعدىٰ حرمات الله أبغضه الله ومن أبغضه الله أبغضته الملائكة ثم يوضع له البغض في الأرض[1]، فلا يكاد يراه أحد إلا استثقله وأبغضه.

الواجب علىٰ العاقل مجانبة الخصال التي تورثه استثقال الناس إياه وملازمة الخصال التي تؤديه إلىٰ محبتهم إياه، ومن أعظم ما يُتَوَسَّلُ به إلىٰ الناس ويستجلب به محبتهم البذلُ لهم مما يملك المرء من حُطام الدنيا واحتماله عنهم ما يكون منهم من الأذىٰ.

---

(١) انظر: «صحيح البخاري» برقم (٦٤٠)، و«صحيح مسلم» برقم (٢٦٣٧).

ذِكْرُ استحباب لُزُومِ المُدَارَاةِ وتركِ المُدَاهَنةِ مَعَ النّاسِ

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مداراةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ**»(١).

الواجب علىٰ العاقل أن يلزم المداراة مع من دُفِعَ إليه في العشرة من غير مقارفة المداهنة إذ المداراة من المداري صدقة له، والمداهنة من المداهن تكون خطيئة عليه، والفصل بين المداراة والمداهنة: هو أن يجعل المرء وقته في الرياضة لإصلاح الوقت الذي هو له مقيم بلزوم المداراة من غير ثلم في الدين من جهة من الجهات فمتىٰ ما تخَلَّق المرء بخلق شابَهُ(٢) بعض ما كره الله منه في تَخلُّقِهِ فهذا هو المداهنة لا المداراة، لأن عاقبتها تصير إلىٰ قُلٍّ ويلازم المداراة؛ لأنها تدعو إلىٰ صلاح أحواله ومن لم يدار الناس ملُّوهْ.

كما أنشدني علي بن محمد البسامي:

دارِ مـنَ النـاسِ مَلالاتِهـم ... مـن لـم يـدارِ النـاسَ مَلُّـوهُ

---

(١) الحديث رواه في الأصل وفي «صحيحه» برقم (٤٧١)، من طريق يوسف بن أسباط عن سفيان الثوري عن محمد بن المنكدر عن جابر مرفوعًا به.

وقد سأل ابن أبي حاتم أباه كما في «العلل» (١/ ٤١٦): فقال: هذا حديث باطل لا أصل له، ويوسف ابن أسباط دفن كتبه.

(٢) أي: خالطه.

مَــن أكْــرَمَ النــاسَ أحَبُّــوهُ ومُكْــرِمُ النــاسِ حَبِيــبٌ لَهُــمْ

الواجب علىٰ العاقل أن يداري الناس مداراة الرجل السابح في الماء الجاري، ومن ذهب إلىٰ عشرة الناس من حيث هو كدَّر علىٰ نفسه عيشه ولم تصفُ له مودَّته؛ لأن وداد الناس لا يُستجلب إلا بمساعدتهم علىٰ ما هم عليه إلا أن يكون مأثمًا فإذا كانت حالة معصية فلا سمع ولا طاعة، والبَشَر قد رُكِّبَ فيهم أهواء مختلفة وطبائع متباينة فكما يَشُقُّ عليك ترك ما جُبِلتَ عليه فكذلك يشق علىٰ غيرك مجانبة مثله، فليس إلىٰ صفو ودادهم سبيل إلا بمعاشرتهم من حيث هم والإغضاء عن مخالفتهم في الأوقات.

قال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «لا تعامل بالخديعة فإنها خلق اللئام وامحض أخاك النصيحة حسنةً كانت أم قبيحة، وساعده علىٰ كلِّ حال، وزل معه حيث زال».

ذِكْرُ استِحْبَابِ إفْشاءِ السَّلامِ وإظْهارِ البِشْرِ والتَّبَسُّمِ

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ السَّلام اسْمٌ من أسماءِ اللهِ وَضَعَهُ في الأرضِ فَأَفْشُوهُ بينكم، فإنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ إذا مَرَّ بالقومِ فسَلَّمَ عليهم فَرَدُّوا عليهِ كان له عليهم فضل درجة بتذكيرِهِ إيَّاهُمْ بِالسَّلامِ، فإنْ لَمْ يَرُدُّوا عليهِ رَدَّ عليه من هو خيرٌ منهم وأطيب**»(١).

الواجب علىٰ العاقل أن يلزم إفشاء السلام علىٰ العام؛ لأن من سَلَّم علىٰ عشرة كان له عتق رقبة(٢)، والسلام مما يَذْهَبُ إفشاؤه بالمُكْتَنِّ(٣) من الشحناء وما في الخَلَد والبغضاء ويقطع الهِجران ويصافي الإخوان.

قال عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ثلاث من جمعهن جمع الإيمان: الإنفاق من الإقتار(٤) والإنصاف من نفسك، وبذل السَّلام للعَالَمِ».

الواجب علىٰ المسلم إذا لقي أخاه المسلم أن يُسَلِّم عليه متبسمًا إليه فإن من فعل ذلك تَحَاتُ عنهما خطاياهما كما تَحَاتُّ ورق الشجر(٥) في الشتاء إذا

---

(١) رواه الطبراني (١٠٣٩٢) وغيره، وحسنه الألباني في «الصحيحة» برقم (١٨٩٤).

(٢) لم أجد دليلًا علىٰ ذلك.

(٣) أي: المخفي والمستتر. انظر: «النهاية» (٢/ ٥٦٦).

(٤) أي: قلة المال، يقال: قتر الله رزقه؛ أي: قلله. انظر: «النهاية» (٢/ ٤١٣).

(٥) وردت أحاديث بذلك في السلام مع المصافحة انظر: «معجم الطبراني» (٦/ ٢٥٦)، و«مصنف ابن أبي شيبة» (٥/ ٢٤٦)، و«شرح معاني الآثار» (٣/ ٢٨١).

يبس، وقد استحق المحبة من الناس من أعطاهم بِشْرِ وجهه، وأنشدني الأبرش:

أخو البِشر محبوبٌ علىٰ حُسْنِ بِشْرِه ... ولن يَعْدَمَ البغضاء من كان عابسا

ويسرع بُخلُ المرءِ في هَتْكِ عِرْضِهِ ... ولم أرَ مثلَ الجُودِ للمَرءِ حَارِسا

البشاشة إدام العلماء وسجية الحكماء؛ لأن البِشر يطفئ نار المعاندة ويحرق هيَجان المباغضة، وفيه تحصينٌ من الباغي ومنجاة من الساعي، ومن بَشَّ للناسِ وجهًا لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك.

لا يجب علىٰ العاقل إذا رُزِقَ السلوك في ميدان طاعة من الطاعات إذا رأىٰ من قَصَّر في سلوك قَصْدِهِ أن يعبس عليه بعمله وجهه بل يظهر البشر والبشاشة له فلعله في سابق علم الله أن يرجع إلىٰ صحة الأوبة إلىٰ قصده مع ما يجب عليه من الحمد لله، والشكر له علىٰ ما وفقه لخدمته وحَرَمَ غيره مثله.

أنشد حماد بن إسحاق:

فتًىٰ مثل صَفْو الماءِ أمَّا لقاؤه ... فبِشرٌ وأمَّا وَعْدُه فَجَمِيلُ

يَسُرُّك مُفْتَرًّا[1] ويشرقُ وَجْهُهُ ... إذا اعتلَّ مذموم الفعالِ بخيلُ

عَيِيٌّ عن الفحشاءِ أمَّا لِسَانُهُ ... فَعَفٌّ وأما طرفُهُ فكليلُ

قال حبيب بن أبي ثابت[2]: «مِنْ حُسْنِ خُلُقِ الرجل أن يَحدِّث صاحبَهُ وهو يبتسم».

❊

(١) المفتر: هو المبتسم.

(٢) هو حبيب بن أبي ثابت الكوفي الفقيه الحافظ مات سنة (١١٩ هـ)، وقيل: سنة (١٢٢ هـ)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ١١٦).

ذِكْرُ مَا أبِيْحَ مِن المِزَاحِ للْمرءِ وَمَا كُرِهَ لهُ مِنْهُ

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له خادم يقال له: أنجشة وكان حسن الصوت فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا أَنْجَشَةُ لا تَكْسِرِ القَوَارِيرَ**»[١].

الواجب علىٰ العاقل أن يستميل قلوبَ الناس إليه بالمزاح وترك التعبُّس.

والمزاح علىٰ ضربين: فمزاح محمود ومزاح مذموم.

فأما المزاح المحمود: فهو الذي لا يشوبه ما كَرِهَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ ولا يكون بإثمٍ ولا قطيعةِ رَحِم.

وأما المزاح المذموم: فالذي يثير العداوة ويُذهب البهاء ويقطع الصداقة ويُجَرِّئ الدَّنيءَ عليه ويحقد الشريف به.

قال ربيعة[٢]: إياكم والمزاح فإنه يفسد المودَّة ويُغلُّ الصدر.

وقال عبد الله بن خُبيق[٣]: كان يقال: «لا تمازح الشريفَ يحقد عليك، ولا تمازح الوضيعَ فيجترئ عليك».

---

(١) الحديث عند مسلم برقم (٢٣٢٣).

(٢) هو ربيعة بن فروخ الإمام أبو عثمان التيمي المدني الفقيه مولىٰ آل المنكدر مات سنة (١٣٦ هـ)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٥٧).

(٣) هو عبد الله بن خبيق الأنطاكي: «الجرح والتعديل» (٥/ ٤٦).

وأنشدني محمد بن عبد الله:

أَكْـرِمْ جَليسَكَ لا تمازحْ بالأذىٰ ... إنَّ المِزَاحَ تُـرَىٰ بِـهِ الأضغانُ

كَـمْ مِـن مِـزاحٍ جَـذَّ حَبْـلَ قرينهِ ... فتجـذَّمَتْ مـن أجلِـهِ الأقـرانُ

المزاح في غير طاعة الله مَسْلَبَةٌ للبهاء مَقْطَعَةٌ للصداقة يورث الضِّغن(١) وينبت الْغِلَّ.

وإنما سمِّي المزاح مزاحًا لأنه زاح عن الحَقِّ، وكم من افتراقٍ بين أخوين وهجرانٍ بين متآلِفَيْنِ وكان أوَّلَ ذلك المزاح.

وإنَّ من المزاح ما يكون سببًا لتهييج المراءِ، والواجب علىٰ العاقل اجتنابه؛ لأن المراءَ مذموم في الأحوال كلِّها ولا يخلو المماري من أن يفوته أحدُ رجلينِ في المراءِ.

إما رجلٌ هو أعلم منه فكيف يجادل من هو دونه في العلم؟

أو يكون ذلك أعلم منه فكيف يماري من هو أعلم منه؟

قال مِسْعَر بن كِدَام لابنه كِدام:

إني نَحَلْتُكَ(٢) يَا كِدَامُ نصيحتي ... فاسمع مقالَ أبٍ عليك شفيقِ

أَمَّا المزاحة والمراء فَدَعْهُمَا ... خُلُقانِ لا أرضاهما لصديقِ

---

(١) أي: الحقد والعداوة «النهاية» (٢/ ٨٥).

(٢) أي: أخلصت لك. يقال: نخلت له النصيحة إذا أخلصتها. «النهاية» (٢/ ٧٢٣)، أما النَّحل - بالحاء المهملة - فهي العطية والهبة ابتداءً من غير عوض ولا استحقاق، يقال: نَحَلَه يَنْحَلُه نُحْلا، بالضم. والنِّحلة - بالكسر - العطية . «النهاية» (٢/ ٧١٩).

إنِّــي بَلَوْتُهُمَــا فلــم أحمــدهما   لمجــاورٍ جــارًا ولا لــشفيقِ
والجهــل يُــزْرِي بــالفتىٰ في قومــه   وعُرُوقُــهُ في النــاسِ أيُّ عــروقِ

قال محمد بن المُنْكَدِر(١): قالت لي أُمِّي وأنا غلام: «لا تمازحِ الغلمانَ فتهونَ عليهم أو يَجْتَرِئوا عليكَ».

قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «من كثر ضحكه قلَّت هيبته، ومن مَزَحَ اسْتُخِفَّ به، ومن أكثرَ من شيءٍ عُرِفَ به».

(١) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير الإمام شيخ الإسلام أبو عبد الله القرشي التيمي مات سنة (١٣٠ هـ). «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٢٧)، «الوافي بالوفيات» (٥/ ٧٨).

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ الاعْتِزَالِ مِنَ النَّاسِ عامًّا

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله! أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: «**الجهادُ في سَبيلِ اللهِ**» قَال: ثم ماذا؟ قال: «**رَجَلٌ في شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللهَ ويَدَعُ الناسَ من شَرِّه**»(١).

الواجب على العاقل لزوم الاعتزال عن الناس عامًّا مع توقِّي مخالطتهم؛ إذ الاعتزال من الناس لو لم يكن فيه خصلة تُحمد إلا السلامة من مقارفة المأثم لكان حقيقًا بالمرءِ أن لا يكدِّر وجود السلامة بلزوم السبب المؤدِّي إلى المناقشة.

العاقل لا يستعبد نفسه لأمثاله بالقيام في رعاية حقوقهم والتصبر على ورود الأذى منهم ما وجد إلى ترك الدخول فيه سبيلًا؛ لأنه إذا حسم عن نفسه ترك الاختلاط بالعالم والمخالطة بهم تمكَن من صفاء القلب وعدم تَكَدُّرِ الأوقات في الطاعات.

ولقد استعمل العزلة جماعة من المتقدمين من العام والخاص معًا.

وأمَّا السبب الذي يوجب الاعتزال عن العَالَمِ كافَّة فهو ما عرفتهم به من وجود دفن الخير ونشر الشَّرِّ يدفنون الحسنة ويظهرون السيئة فإن كان المرء

(١) رواه البخاري برقم (٦٤٦٤)، ومسلم برقم (١٥٠٣)، وهناك زيادات يسيرة في ألفاظه.

عالمًا بَدَّعوه، وإن كان جاهلًا عيَّروه، وإن كان فوقهم حسدوه، وإن كان دونهم حقروه، وإن نطق قالوا: مهذار، وإنْ سكت قالوا: عييٌّ، وإن قَدَر قالوا: مقتر، وإن سمح قالوا: مبذِّر، فالنادم في العواقب المحطوط عن المراتب من اغتر بقومٍ هذا نَعْتُهُمْ وغرَّه ناس هذه صفتهم، وأنشدني ابن أبي عليٍّ قال أنشدني محمد بن يعقوب العبدي:

إذا قلتُ هذا صاحبٌ قد رضيتُه ... وقرَّت به عينايَ بُدِّلتُ آخَرا

وذلك أنِّي لا أُصاحبُ صاحبًا ... من الناس إلَّا خانني وتغيَّرا

قال مكحول[1]: «إن كان في مخالطةِ الناسِ خيرٌ فالعزلة أسلَم».

قال إبراهيم البخاري: دخلت المسجد الحرام بعد المغرب فإذا فضيل[2] جالس، فجئت فجلست إليه فقال: من هذا؟ فقلت: إبراهيم. قال: ما جاء بك؟ قلت: رأيتك وحدك فجلست إليك قال: تحب أن تغتاب أو تتزين أو ترائي؟ قلت: لا، قال: قم عني»[3].

---

(١) هو مكحول عالم أهل الشام أبو عبد الله بن أبي مسلم الهذلي الفقيه الحافظ مات سنة (١١٣ هـ)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٠٧)، «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٥٥).

(٢) فضيل بن عياض التميمي شيخ الحرم. «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٨٠).

(٣) انظر: «الآداب الشرعية» (٢/ ١١٤)، لابن مفلح تستفد.

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ المُؤاخَاةِ لِلمَرْءِ مَعَ الخَاصِّ

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «آخىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين سلمانَ وأبي الدَّرداءِ وآخي بين عوفِ بن مالك وبين الصعبِ بن جَثَّامة»(١) .

الواجب علىٰ العاقل ألا يغفل عن مؤاخاة الإخوان وإعداده إياهم للنوائب والحَدَثانِ(٢) لأن من تعزىٰ عن موضع سلوتِهِ بأخيه عند الهُمومِ والغمومِ كان عَقْلُه إلىٰ التقديحِ أقرب، ومن النماء أنقص، وأنشد محمد بن عمران الضَّبِّيُّ:

وَمَــا المَــرءُ إِلَّا بِإخوَانِــهِ ... كَمَــا تَقْــبضُ الكَــفُّ بالمِعْــصَمِ

ولا خَيْــرَ فِي الكَــفِّ مقطوعــةً ... ولا خَيْــرَ فِي الــسَّاعِدِ الأَجْــذَمِ

الواجب علىٰ العاقل أن لا يعدَّ في الأدواءِ إخاءَ من لم يواسِهِ في الضَّرَّاءِ ولم يشاركه في السَّرَّاءِ، وَرُبَّ أخي إخاءٍ خيرٌ من أخي ولادةٍ، ومن أتمِّ حفظِ

---

(١) الحديث عند المصنف في «الأصل» في سنده قطن بن نسير إلىٰ الضعف أقرب إلَّا أن مؤاخاة سلمان وأبي الدرداء ثابتة عند البخاري برقم (٦١٣٩)، من حديث أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
ومن حديث أنس في البخاري برقم (٢٢٩٣)، ومسلم برقم (٢٥٢٩)، مؤاخاة عبد الرحمن بن عوف وسعيد بن الربيع.
وكانت المؤاخاة في بداية الهجرة علىٰ التوارث ثم نسخت وبقيت مؤاخاة المواساة والمؤازرة والنصرة. انظر: «فتح الباري» (٤/ ٢٦٣)، شرح حديث رقم (١٩٦٨٧)، و(٥٩٧)، و(٢٢٩٥).

(٢) حَدَثان الدهر وحوادثه؛ أي: نوائبه. «لسان العرب» (٢/ ٣٨).

الأُخوَّة تفقُّدُ الرجلِ أُمورَ من يَوَدُّه، والودُّ الصحيح هو الذي لا يميل إلىٰ نفع ولا يفسده منع، والمودَّة أمْنٌ كما أن البغضاء خَوْفٌ.

الواجب علىٰ العاقل أن يعلم أن الغرض من المؤاخاة ليس الاجتماع والمؤاكلة والمشاربة، إنَّ البغال والحمير تجتمع علىٰ المؤاكلة والمشاربة، والسُّرَّاقُ يداخلون الرِّجال علىٰ التقارف ولا يزدادون بذلك مودَّة، ولكنَّ من أسباب المؤاخاة التي يجب علىٰ المرءِ لُزُومُها مشي القصدِ وخفض الصوتِ وقِلَّة الإعجابِ، ولزوم التواضع وترك الخلافِ.

ولا يجب للمرءِ أن يكثر علىٰ إخوانِه المَئونات فيبرمهم؛ لأن الرضيع إذا كَثُرَ مَصُّهُ ربما ضجرت أُمُّه فتلقيه.

ولا ينبغي لمن قدر أن يمنع أخاه شيئًا يحتاج إليه ليجبر به مصيبته أو يفرج به كربته.

والعاقل لا يؤاخي لئيمًا؛ لأنَّ اللَّئيمَ كالحيَّةِ الصَّمَّاءِ لا يوجد عندها إلا اللَّدغُ والسُّمُّ، ولا يصلُ اللئيم ولا يؤاخي إلا عن رغبة أو رهبة، والكريم يَوَدُّ الكريم علىٰ لقْيةٍ واحدةٍ ولو لم يلتقيا بعدها أبدًا. أصيبَ يونس بن عبيد بمصيبةٍ فقيل له: ابنُ عوفٍ لم يأتِكَ؟ فقال: إنا إذا وثقنا بمَوَدَّةِ أخينا لم يضرَّه أن لا يأتينا.

العاقل يتفقد ترك الجفاء مع الإخوان، ويراعي محوها إن بدت منه ولا يجب أن يستضعف الجفوة اليسيرة لأن من استصغر الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيرًا فإذا الصغير كبير بل يبلغ مجهوده في محوها؛ لأنه لا خير في الصدق

إلا مع الوفاء كما لا خير في الفقه إلا مع الورع، وإن من أخرَقِ الخُرْقِ[1] التماس المرء الإخوان بغير وفاءٍ وطلب الأجر بالرِّياء، ولا شيء أضيع من مودَّةٍ تُمْنَحُ من لا وفاءَ له وصنيعة تصطنع عند من لا يشكرها.

❊

(١) الخُرق بالضم: الجهلُ والحُمقُ. «النهاية» (١/ ٤٨٥).

ذِكْرُ كَرَاهِيَةِ المُعَادَاةِ للنَّاسِ

عن أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**أَوَّلُ شَيْءٍ نهاني عنه رَبِّي – بَعدَ عبادة الأوثانِ – لعنُ الحميرِ وملاحاةُ**[1] **الرِّجال**»[2].

الواجب علىٰ العاقلِ أن يعلم أن من يَوَدُّه لم يحسده، ومن لم يحسده لم يُعَادِه، فيكون للعَدُوِّ المكاتم أشدَّ حذرًا منه للعدو المبارِز، ومن وجَدَ عنده مغترًّا وكان ممن لا يعفو ثم لا ينتصف منه أصابته الندامة والرأي إذا كانَ من الأريب كان أبلغ في هلاك العدو من العدد الكثير من الجنود، وترك العداوة علىٰ الأحوال كلِّها أحوط للعاقلْ من الخوض في سلوكها.

أَنْشَدَ مهدي بن سابق:

تَكَثَّرْ من الإخوانِ ما اسْطَعْتَ إِنَّهُمْ ... عمادٌ إذا استنجدتهم وظهورُ

وليس كثيرًا ألفُ خلٍّ لصاحبٍ ... وإنَّ عَدُوًّا واحدًا لكثيرُ

لا يجب علىٰ العاقل أن يكافئَ الشرَّ بمثله وأن يتخذ اللَّعنَ والشَّتمَ علىٰ عدوِّه سلاحًا إذ لا يستعان علىٰ العدو بمثل إصلاح العيوب وتحصين العورات حتىٰ لا يجد العدو إليه سبيلًا، والعاقل لا يرحَمُ من يَخَافُه ولا يترك إحصاء معائب العدوّ ويتفقد عثراتهم مع السكوت عن ثلبه ولا يستضعف عدوًّا بحيلةٍ

---

(١) الملاحاة المنازعة وفي المَثَل من لاحاك فقد عاداك «مختار الصحاح» مادة: «لحىٰ».

(٢) الحديث ضعيف جدًّا في سنده عند المصنف في «الأصل» عمرو بن واقد متروك.

فإن من استضعف الأعداءَ اغترَّ، ومن اغترَّ لم يسلم، اللهمَّ إلا أن يكون العدو ذليلًا فإذا كان كذلك عطف عليه بالإغضاءِ[١] لأنَّ العدوَّ الذليلَ أهْلٌ أن يُرحَمَ كما أن المستجيرَ الخائفَ أهلٌ أن يؤمَّن، والمعاداة للعاقل خير من المُصافحة للجاهل.

أنْشَدَ أحمد بن محمدٍ البكري:

ولَمَنْ يَعَادِي عاقلًا خيرٌ له ... من أن يكون له صديقٌ أحمقُ

فارغب بنفسك أن تصادق أحمقًا ... إن الصديق علىٰ الصديق مُصَدِّق

العاقل يبصر موضع خطواته قبل أن يضعها ثم يقارب عدوَّه بعض المقاربة لينال حاجته ولا يقاربه كلَّ المقاربة فيجترئ عليه، والعاقل لا يعادي ما وجَدَ إلىٰ المحبة سبيلًا، ولا يعادي من ليس له منه بُدّ، ولا العدو الحَنِق الذي لا يطاق فإنه ليس له حيلة إلا الهرب منه، وحيلة السبيل إلىٰ القدرة علىٰ العدو وجود الغِرَّة فيه، وأن يُرِي العدو أنه لا يتخذه عدوًّا ثم يصادق أصدقاءه فيدخل بينه وبينهم.

العاقل لا يأمن عدوَّه علىٰ كلِّ حال إن كان بعيدًا لم يأمن مغادرته وإن كان قريبًا لم يأمن مواثبته، والعاقل لا يخاطر بنفسه في الانتقام من عدوِّه؛ لأنه إن هلك في قصده قيل: أضاع نفسه، وإن ظفر قيل: القضاءُ فعلَه، والمعاداة بعد الخُلَّة فاحشة عظيمة لا يليق بالعاقل ارتكابها فإن دفعه الوقت إلىٰ ركوبها ترك للصلح موضعًا.

---

(١) أي: يغض عنه باحتمال المكروه، انظر: «مختار الصحاح» مادة: «غضَّ».

العاقل لا يغيِّره إلزاق العدوّ بِهِ العيوب والقبائح؛ لأن ذلك لا يكون له وقع ولا لكثرته ثبات، ولا يلتذّ المرء ما كان عدوّه باقيًا كما لا يجد السقيم طعم النوم والطعام حتىٰ يبرأ.

وأشد مكيدة العدو وما يعمل فيه من سبيل مأمنك، والغالب بالشرِّ مغلوب، وإن من أعظم الأعوان علىٰ الأعداء تعاهد المرء وَلَده وعياله وخَدَمَه وتوقيه إياهم علىٰ المعايب والزلات.

ذِكْرُ الحثِّ على صُحْبَةِ الأخْيارِ والزَّجْرِ عَنْ عِشْرَةِ الأشْرَارِ

عن أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ مثلُ العَطَّارِ إن لم يَنَلْكَ مِنْهُ أَصَابَكَ من رِيحِهِ، وَمَثَلُ جَلِيسِ السَّوءِ مثلُ القَيْنِ إنْ لَمْ تُصِبْكَ نارُه أصابَكَ شَرَرُهُ**»[1].

العاقل يلزم صحبة الأخيار ويفارق صحبة الأشرار؛ لأن مودة الأخيار سريعٌ اتصالُها بطيءٌ انقطاعُها، ومودَّة الأشرار سريعٌ انقطاعُها بطيءٌ اتصالُها، وصحبة الأشرار توْرِثُ سوء الظنِّ بالأخيار، ومن خادن[2] الأشرار لم يسلم من الدخول في جملتهم، فالواجب علىٰ العاقل أن يجتنب أهلَ الرِّيب لئلا يكون مريبًا، فكما أن صحبة الأخيار تورث الخير كذلك صحبة الأشرار تورث الشَّرّ.

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

عَليكَ بإخوَانِ الثِّقَاتِ فإنَّهُمْ ... قَلِيلٌ فَصِلْهُم دُونَ مَن كُنتَ تَصْحَبُ

ونفسك أكرِمْهَا وصُنْهَا فإنَّهَا ... متىٰ ما تُجالِس سِفْلَةَ الناسِ تَغْضَبُ

---

(١) الحديث عند المصنف في «الأصل» وسنده: حسن، رجاله كلهم ثقات سوىٰ شيخه الحسن بن سفيان النسائي قال ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» (٣/ ١٦): صدوق، وفيه عنعنة قتادة ولكن الراوي عنه شعبة فلا تضر، وعلىٰ كلٍّ أصلُ الحديث في «الصحيحين» عند البخاري برقم (٢١٠١)، ومسلم برقم (٢٠٢٦).

(٢) الخادن: الصديق. «النهاية» (١/ ٤٧٥).

قال مالك بن دينار[1]«إنك أنْ تنقل الحجارة مع الأبرار خير من أن تأكل الخبيص[2] مع الفجار».

العاقل لا يدنِّس عرضه ولا يعوّد نفسه أسبابَ الشَّرِّ بلزوم صحبة الأشرار ولا يغضي عن صيانة عرضه ورياضة نفسه بصحبة الأخيار علىٰ أن الناس عند الخبرة يتبين منهم أشياء ضد الظاهر منها.

وكُلُّ جليس لا يستفيد المرء منه خيرًا تكون مجالسة الكلب خيرًا من عشرته، ومن يصحب صاحب السوء لا يسلم كما أن من يدخل مداخل السُّوءِ يُتَّهَم، وما أُشَبِّهُ صحبة الأخيار إلا بما أنشدني منصور بن محمد الكُرَيْزِيّ:

فلو كانَ مِنْهُ الخَيْر إذْ كانَ شرُّه ... عتيدًا ضَرَبْتُ الخَيْرَ يومًا مَعَ الشَّرِّ

ولو كَانَ لا خَيْرًا ولا شَرّ عِنْدَهُ ... رضِيتُ لَعَمْري بالكَفَافِ مَعَ الأجْرِ

ولَكِنَّهُ شَرٌّ ولا خيرَ عِنْدَهُ ... وَلَيْسَ علىٰ شَرٍّ إذا طَالَ مِنْ صَبْرِ

الواجب علىٰ العاقل أن يستعيذ بالله من صحبة من إذا ذكر الله لم يُعِنْه وإن نسي لم يذكِّرْه، وإن غفل حرَّضه علىٰ ترك الذكر، ومن كان أصدقاؤه أشرارًا كان هو شرَّهم، وكما أن الخيِّر لا يصحب إلا البررة كذلك الرديءُ لا يصحب إلا الفجرة، فإن المرء إذا اضطره الأمر فليصحب أهل المروءات.

---

(١) هو مالك بن دينار أبو يحيىٰ عَلَمُ العلماء الأبرار معدود في ثقات التابعين ومن أعيان كَتَبَةِ المصاحف مات سنة (١٣٠ هـ) وقيل: سنة (١٢٧ هـ) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٤)، «الجرح والتعديل» (٨/ ٢٠٨).

(٢) الخبيص: هو الحلواء. «مختار الصحاح» مادة: «خبص».

قال عبد الواحد بن زيد[1] «جالسوا أهل الدِّين من أهل الدنيا فإنهم لا يرفثون[2] في مجالسهم».

❋

(١) قاصُّ أهل البصرة.

(٢) الرفث: هو الفُحش من القول. «مختار الصحاح» مادة: «رفث».

ذِكْرُ كَرَاهِيَةِ التلوُّن في الوِدادِ بيْنَ المُتاخيينَ

عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لا يَرَىٰ لكَ منَ الحَقِّ مثل ما تَرَىٰ لَهُ**»(١) .

الواجب علىٰ العاقل إذا رزقه الله ودَّ امرئٍ مسلمٍ صحيح الوداد محافظ عليه أن يتمسك به ثم يوطِّن نفسه علىٰ صلته إن صَرَمَه وعلىٰ الإقبال عليه إن صدَّ عنه وعلىٰ البَذْلِ له إن حرمه وعلىٰ الدُّنوِّ منه إن باعده حتىٰ كأنه ركنٌ من أركانه، وإن من أعظم عيبِ المرء تلونه في الوداد.

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ وُدُّه بِلِسَانِهِ ... خَؤونٌ بِظَهْرِ الغَيْبِ لا يَتَنَدَّمُ

يُضَاحِكُني كَرْهًا لِكَيْمَا أوَدّه ... وَتَتْبَعُني مِنْهُ إذا غِبْتُ أَسْهُمُ

العاقل لا يصادق المتلون، ولا يؤاخي المتقلِّب، ولا يظهر من الوداد إلا

(١) روىٰ المصنف هذا الحديث من طريق بكار بن شعيب عن ابن أبي حازم عن أبيه عن سهل بن سعد مرفوعًا به.

وقد ذكر المصنف نفسه في «المجروحون» (١/ ٢٢٦)، بكار بن شعيب فقال: من أهل دمشق يروي عن ابن أبي حازم روىٰ عنه إبراهيم الحوراني وأهل بلده. يروي عن الثقات ما ليس من أحاديثهم لا يجوز الاحتجاج به. ثم ذكر له هذا الحديث. قال الحافظ في «لسان الميزان» (٢/ ٣٣٠): أورده ابن حبان مُنْكَرًا له عليه.

مثل ما يضمر، ولا يضمر إلا فوق ما يظهر، ولا يكون في النوائب عند القيام بها إلا ككونه قبل إحداثها والدخول فيها؛ لأنه لا يُحمد من الإخاء ما لم يكن كذلك.

أنْشَدَ رجل من خُزاعة:

ولَيْسَ أخِي مَنْ وَدَّني بِلسَانِهِ ... وَلَكِنْ أخي مَنْ ودَّني في النَّوائِبِ

وَمَنْ مَالُه مَالي إذا كنتُ مُعْدِمًا ... ومَا لي لَه إنْ عَضَّ دَهْرٌ بِغَارِبِ[(١)]

فلا تَحْمَدَنْ عِنْدَ الرَّخاءِ مُؤاخِيًا ... فَقَدْ تُنْكِرُ الإخْوَان عِنْدَ المَصَائِبِ

وَمَا هُوَ إلَّا كَيْفَ أنْتَ وَمَرْحَبًا ... وبِالْبَيْضِ[(٢)] روَّاغٌ كَرَوْغِ الثَّعَالِبِ

إن من أعظم الأمارات علىٰ معرفة صحة الوداد وسقمه ملاحظة العين إذا لَحَظَتْ فإنها لا تكاد تبدي إلا ما يضمر القلب من الودِّ ولا يكاد يخفىٰ ما يُجِنُّه الضمير من الصَدِّ، فالعاقل يعتبر الودَّ بقلبه وعين أخيه، ويجعل له بينهما مسلكًا لا يردُّه عن معرفة صحته شيءٌ تخيَّلَه.

❊

(١) الغارب: مقدم السنام والذروة ومنه في كنايات الطلاق: «حبلُكِ علىٰ غاربك». «النهاية» (٢/ ٢٩٤).

(٢) البيض: الدراهم. وانظر: «النهاية» (١/ ١٧٤ - ١٧٥).

ذِكْرُ ائتِلَافِ النَّاسِ واختِلافِهِمْ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعارَفَ مِنْهَا ائتَلَفَ وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ**»(١).

سبب ائتلاف الناس وافتراقهم بعد القضاء السابق هو تعارف الروحين، وتناكرهما هو تناكر الروحين، فإذا تعارف الروحان وُجِدَتِ الأُلفةُ بين نفسيهما، وإذا تناكر الروحان وُجِدت الفرقة بين جسميهما.

رأى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رجلًا فقال: «إن هذا ليحبني قالوا، وما علمك؟ قال: إني لأُحبُّه والأرواح جنود مجنَّدة فما تعارفَ منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

أَنْشَدَ أحمد بن محمد بن بكر الأبناوي:

إنَّ القُلُـــوبَ لأجنـــادٌ مُجَنَّـــدةٌ ... لِلَّـــهِ في الأرْضِ بـــالأهْوَاءِ تَعْتَـــرِفُ

فَمَـــا تَعَـــارَفَ مِنْهَـــا فَهْـــوَ مُؤتَلِـــفٌ ... وَمَـــا تَنَـــاكَرَ مِنْهَـــا فَهْـــوَ مُخْتَلِـــفُ

إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء من تقلبه وسكونه: هو الاعتبار بمن يخادنه ويَوَدُّه؛ لأن المرء على دين خليله وطير السماء على أشكالها تقع(٢).

---

(١) الحديث رواه مسلم برقم (٦٨٧٦) نووي.

(٢) أخذه من قول الشاعر:

وفي السمـــاء طيـــور اسمهـــا البقـــع ... إن الطيـــور علـــى أشكـــالهـــا تقـــع

العاقل يجتنب مماشاة المريب في نفسه، ويفارق صحبة المتهم في دينه؛ لأن من صحب قومًا عُرف بهم، ومن عاشر امرأً نُسِبَ إليه، والرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكله، فإذا لم يجد المرء بُدًّا من صحبة الناس تَحَرَّىٰ صحبة من زانه إذا صحبه ولم يشِنْه إذا عرف به، وإن رأىٰ منه حسنةً عدها وإن رأىٰ منه سيئةً سترها، وإن سكت عنه ابتدأه، وإن سأله أعطاه. فأما اليوم فأكثر أحوال الناس تكون ظواهرها بخلاف بواطنها.

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

اجْعَلْ قَرِينَكَ مَنْ رَضِيْتَ فِعالَهُ ... واحْذَرْ مُقَارَنَةَ القَرِينِ الشَّائِنِ

كَمْ مِنْ قَرِيْنٍ شَائِنٍ لِقرينِهِ ... ومُهَجِّنٍ منه لِكُلِّ مَخَاسِنِ

إن من الناس من إذا رآه المرء يُعجب به فإذا ازداد به علمًا ازداد به عُجْبًا، ومنهم من يُبغضه حين يراه ثم لا يزداد به علمًا إلا ازداد له مقتًا فاتفاقهما يكون باتفاق الروحين قديمًا، وافتراقهما يكون بافتراقهما، وإذا ائتلفا ثم افترقا فراق حياة من غير بغض حادث أو فراق ممات فهنالك الموت الفظيع والأسف الوجيع ولا يكون موقف أطول غمَّةً وأظهر حسرةً وأدوم كآبةً وأشد تأسفًا وأكثر تلهفًا من موقف الفراق بين المتآخيين، وما ذاق ذائقٌ طعمًا أمرَّ من فراق الخِلَّين وانصرام القرينين[1].

---

(١) انظر: «الآداب الشرعية» (٤/ ٢١٣) لابن مفلح.

ذِكْرُ الحثِّ على زِيَارَةِ الإخْوَانِ وإكْرامِهِمْ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنَّ رجلًا زارَ أخًا له في قرية فَأَرْصَدَ**[١] **الله علىٰ مَدْرَجَتِهِ**[٢] **ملكًا فقال: أين تريد؟ فقالَ: أُريد أخًا لي في هذه القريةِ فقالَ: له عليك من نعمة تربُّها**[٣] **قالَ: لا، إلَّا أنِّي أحبُّهُ في الله. قال: إنِّي رسولُ اللهِ إليكَ إنَّ الله تباركَ وتعالىٰ أَحَبَّكَ كَمَا أحْبَبْتَهُ**»[٤].

الواجب علىٰ العاقل تعاهد الزيارة للإخوان وتفقُّد أحوالهم؛ لأن الزائر في قصده الزيارة يشتمل علىٰ مصادفة معنيين:

أحدهما: استكمال الذخر في الآجل بفعله ذلك.

والآخر: التلذُّذ بالمؤانسة بالأخ المزور مع الانقلاب بغنيمتين معًا.

قال الفريابي: جاءني وكيع بن الجراح من بيت المقدس وهو محرم بعمرة فقال: يا أبا محمد لم يكن طريقي عليك، ولكني أحببت أن أزورك وأُقيم عندك، فأقام عندي ليلةً، وجاءني ابن المبارك وقد أحرم بعمرة من بيت المقدس فأقام عندي ثلاثًا فقلت: يا أبا عبد الرحمن أقم عندي عشرة أيام. قال: لا، الضيافة

---

(١) أي: أقعد. يقال: رصدته إذا قعدت له علىٰ طريقه تترقبه. «النهاية» (١/ ٦٥٩).

(٢) أي: طريقه. وانظر: «النهاية» (١/ ٥٦٢).

(٣) أي: تحفظها وتراعيها. «النهاية» (١/ ٦٢٢) و (٦٥٩) مادة: «رصد».

(٤) الحديث رواه مسلم برقم (٢٥٦٧)، إلا أنه قال: «**هل لك عليه من نعمة؟**».

ثلاثة أيام.

الناس في الزيارة علىٰ ضربين:

فمنهم من صحح الحال بينه وبين أخيه وتعرَّىٰ عن وجود الخلل وورد النقص فيه، فإذا كان بهذا النعت أحببت له الإكثار من الزيارة والإفراط والاجتماع؛ لأن الإكثار من الزيارة بين مَن هذا نعته لا يورث الملالة، والإفراط في الاجتماع بين من هذه صفته يزيد في المؤانسة.

والضرب الآخر: لم يستحكم الودّ بينه وبين من يؤاخيه ولا أدَّاهما الحال إلىٰ ارتفاع الحشمة بينهما فيما يَبْتَذِلانِ لمهنتيهما فإذا كان بهذا النعت أحببت له الإقلال من الزيارة؛ لأن الإكثار منها بينهما يؤدِّي إلىٰ الملالة، وكلُّ مبذولٍ مملولٌ وكلُّ ممنوع ملذوذٌ، وقد روي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبار كثيرةٌ تصرِّح بنفي الإكثار من الزيارة حيث يقول: «**زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا**»[1] إلا أنه لا يصحّ منها خبر، وإليها ذهب بعض الناس حتىٰ ذكروها في أشعارهم، من ذلك ما أنشدني محمد بن عبد الوهاب بن زنجي البغدادي:

إذا زُرْتَ الحَبيبَ فَزُرْهُ غبًّا[2] وقَدْ قَالَ النَّبِيُّ وَكَانَ بَرًّا

إلىٰ مَنْ زُرْتَهُ مِقَةً[3] وَحُبَّا وأقْلِلْ زَوْرَ مَنْ تَهْوَاهُ تَزْدَدْ

---

(١) رواه الحاكم (٣/ ٣٤٧)، وفي سنده أزهر بن زفر مجهول الحال وسليمان بن أبي كريمة ضعفه أبو حاتم في «الجرح والتعديل» (٤/ ١٣٨).

(٢) الغب هو الزيارة كلَّ أُسبوع. قاله الحسن البصري، وأصل الغِبّ: أوراد الإبل أن ترد الماء يومًا وتدعه يومًا ثم تعود. انظر: «النهاية» (٢/ ٢٨٤)، و«مختار الصحاح» مادة: «غبب».

(٣) المِقةُ: المَحَبَّةُ «مختار الصحاح» مادة: «ومق».

من صحح الحال بينه وبين الإخوان لم يُضُرَّه قلة الاجتماع لاستحكام الحال بينهما، والمودَّة إذا أضرَّ بها قلة الالتقاء تكون مدخولة، وأما من لم يحلَّ في نفس صحة الحال ولم يستحكم أسباب الوداد فالتوقِّي من الإكثار في الزيارة أولىٰ به لئلَّا يُستثقلَ ويُمَلَّ.

❋

ذِكْرُ صِفَةِ الأحمَقِ والجَاهِلِ

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثلُ الجَليسِ الصَّالِحِ مثل العطار إنْ لَمْ يُعْطِكَ شَيْئًا يُصِبْكَ مِن عِطْرِه، ومثلُ الجليسِ السّوءِ مثل القَيْنِ إنْ لم يحرقْ ثَوْبَكَ أصابَكَ مِن دُخَانِهِ**»(١).

الواجب علىٰ العاقل ترك صحبة الأحمق ومجانبة النَّوْكَىٰ(٢) كما يجب عليه لزوم صحبة العاقل الأريب وعشرة الفَطِن اللَّبيب؛ لأن العاقل وإن لم يصبك الحظ من عقلِه أصابك من الاعتبار به والأحمق إن لم يُعْدِكَ حُمْقُه تَدَنَّسْتَ بعشرته.

قال سلمة بن بلال: كان فتىٰ يعجب عليّ بن أبي طالب فرآه يومًا يماشي رجلًا متَّهمًا فقال له:

لا تَصْحَب أخا الجَهْلِ ... وإيَّاكَ وإيَّاهُ

فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَىٰ ... حَلِيْمًا حِيْنَ آخَاهُ

يُقَاسُ المَرْءُ بِالْمَرْءِ ... إذا مَا هُوَ مَاشَاهُ

---

(١) أورد المصنف هذا الحديث في الأصل من طريق شبيل بن عزرة عن أنس ثم قال: شبيل بن عزرة هذا من أفاضل أهل البصرة وقُرائهم ولكنه لم يحفظ إسناد هذا الخبر؛ لأن أنس بن مالك سمع هذا الخبر من أبي موسىٰ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقصَّر به شبيل ولم يحفظه.
قلت: وقد تقدم؛ وإن أصله في الصحيحين.

(٢) النوكىٰ: الحمقىٰ جمع أنْوَك. والنُّوك - بالضم الحُمْق - «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ٨٠٥).

وللــــشَّيءِ عَلَـــىٰ الـــشَّيءِ مَقَـــــايِيْسٌ وأشْـــــبَاهُ
ولِلْقَلْـــبِ عَلَـــىٰ القَلْـــبِ دَلِيْـــلٌ حِـــيْنَ يَلْقَـــاهُ

من علامات الحُمْقِ التي يجب علىٰ العاقل تفقدها ممن خفي عليه أمره سرعة الجواب وترك التثبُّت والإفراط في الضحك وكثرة الالتفات والوقيعة في الأخيار والاختلاط بالأشرار، والأحمق إذا أعرضت عنه اغتمَّ وإن أقبلت عليه اغترَّ، وإن حَلُمت عنه جهل عليك وإن جهلت عليه حلم عنك، وإن أسأت إليه أحسن إليك وإن أحسنت إليه أساء إليك، وإذا ظلمته انتصفت منه ويظلمك إذا أنصفته.

وإنَّ من الحمقىٰ من لا يصدُّه عن سلوكه السكوت عنه ولا يدفعه عن دخول المكامن الإغضاء عنه ولا ينفعه.

فالعاقل إذا امتُحِنَ بعشرة من هذا نعته تكلَّف بعض التجاهل في الأحايين، لأنَّ بعض الحلم إذعان كما أن استعماله في بعض الحالات قطب العقل.

والعاقل يجب عليه مجانبة من هذا نعته ومخالطة من هذه صفته، فإنهم يجترئون علىٰ من عاشرهم ألا ترىٰ الزُّطَّ(١) ليسوا هم بأشجع الناس ولكنهم يجترئون علىٰ الأُسْدِ لكثرة ما يرونها.

وإن من شيم العاقل الحلم والصمت والوقار والسكينة والوفاء والبذل والحكمة والعلم والورع والعدل والقوة والحزم والكياسة والتمييز والسمت(٢)

(١) الزطّ: هم جنس من السُّودان والهنود. «النهاية» (١/ ٧٢٣).
(٢) السَّمْتُ: هو: حسن الهيئة «النهاية» (١/ ٨٠٢).

والتواضع والعفو والإغضاء والتعفف والإحسان فإذا وفِّق المرء لصحبة العاقل فليشدَّ يديه به ولا يزايله[١] علىٰ الأحوال كلِّها.

والواجب علىٰ العاقلِ أن لا يصحب بحيلة من لا يستفيد منه خيرًا.

❊

(١) أي: لا يفارقه.

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنِ التَّجَسُّسِ وسوءِ الظَّنِّ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فإنَّ الظَّنَّ أكذبُ الحديثِ ولا تَجَسَّسُوا ولا تَحَسَّسُوا**[1] **ولا تَبَاغَضُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخوانًا**»[2].

الواجب علىٰ العاقل لزوم السلامة بترك التجسس عن عيوب الناس مع الاشتغال بإصلاح عيوب نفسه؛ فإنَّ من اشتغل بعيوبه عن عيوب غيره أراح بدنه ولم يتعب قلبه فكلما اطلع علىٰ عيبٍ لنفسه هان عليه ما يرىٰ مثله من أخيه، وإن من اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه وتعب بدنه وتعذر عليه ترك عيوب نفسه، وإن من أعجز الناس من عاب الناس بما فيهم وأعجز منه من

---

(١) إحدىٰ الكلمتين بالجيم، والأخرىٰ بالحاء المهملة، قال الخطابي: معناه لا تبحثوا عن عيوب الناس ولا تتبعوها، وأصل هذه الكلمة التي بالمهملة من الحاسة إحدىٰ الحواس الخمس وبالجيم من الجس بمعنىٰ اختبار الشيءِ باليد وهي إحدىٰ الحواس فتكون التي بالحاء أعم، وقال إبراهيم الحربي: هما بمعنىٰ واحد، وقال ابن الأنباري: ذكر الثاني للتأكيد، كقولهم: بُعْدًا وسُحْقًا، وقيل: بالجيم، البحث عن عوراتهم وبالحاء استماع حديث القوم، وهذا رواه الأوزاعي عن يحيىٰ بن أبي كثير، وقيل: بالجيم، البحث عن بواطن الأُمور وأكثر ما يقال في الشر، وبالحاء البحث عما يدرك بحاسة العين والأُذن، ورجح هذا القرطبي، وقيل: بالجيم تتبع الشخص لأجل غيره، وبالحاء تتبعه لنفسه، وهذا اختيار ثعلب «فتح الباري» (١/ ٥٩٢) بتصرف يسير.

(٢) الحديث رواه البخاري برقم (٦٠٦٤)، ومسلم برقم (٢٥٦٣).

عابهم بما فيه[١] ومن عاب الناس عابوه.

وأنشدني الكُرَيْزِيّ:

أرَىٰ كـلَّ إنْسَانٍ يَـرَىٰ عَيْـبَ غَيْـرِهِ وَيَعْمَـىٰ عَـنِ الْعَيْـبِ الـذي هُـوَ فيـهِ

ومَـا خَيْـرُ مَـنْ تَخْفَـىٰ عَلَيْـهِ عُيُوبُـه وَيَبْـدُو لَـهُ العَيْـبُ الـذِي لأخِيـهِ

التجسس من شعب النفاق[٢] كما أن حسن الظنِّ من شعب الإيمان، والعاقلُ يحسن الظنَّ بإخوانه وينفرد بغمومه وأحزانه، كما أنَّ الجاهل يسيء الظنَّ بإخوانه ولا يفكر في جناياته وأشجانه.

سوء الظنِّ علىٰ ضربين:

أحدهما: منهيٌّ عنه بحكم النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والضرب الآخر: مستحبٌّ.

فأمَّا الذي عنه نهىٰ فهو استعمال سوءِ الظنِّ بالمسلمين كافة علىٰ ما تقدم ذِكْرُنا له.

---

(١) قال ابن القيم في «الفوائد» ص (٥٨): أخسر الناس صفقةً من اشتغل عن الله بنفسه بل أخسر منه من اشتغل عن نفسه بالناس.

(٢) ويستثنىٰ من النهي عن التجسس ما لو تعيَّن طريقًا إلىٰ إنقاذ نفس من الهلاك مثلًا كأن يخبر ثقة بأن فلانًا خلا بشخص ليقتله ظلمًا أو بامرأة ليزني بها، فيشرع في هذه الصورة التجسس والبحث عن ذلك حذرًا من فوات استدراكه. نقله النووي عن «الأحكام السلطانية» للماوردي واستجاده وأن كلامه ليس للمحتسب أن يبحث عما لم يظهر من المحرمات ولو غلب علىٰ الظن استسرار أهلها بها إلا هذه الصورة. «فتح الباري» (١٠/ ٥٩٢).

وأمَّا الذي يستحبُّ من سوءِ الظنّ فهو كمن بينه وبينه عداوة أو شحناء في دين أو دنيا يخاف علىٰ نفسه مكره فحينئذٍ يلزمه سوء الظنِّ بمكائده ومكره لئلا يصادفه علىٰ غِرَّة[١] بمكره فيهلكه.

وفي ذلك أنشدني الأبرش:

وَحُسْنُ الظَّنِّ يَحْسُنُ في أُمُورٍ   وَيَكْمُنُ في عَوَاقِبِهِ نَدَامَهْ

وسُوء الظَّنِّ يَسْمُجُ في وجُوهٍ   وفِيهِ مِنْ سَمَاجَتِهِ حَزَامَهْ

الواجب علىٰ العاقل مباينة العام في الأخلاق والأفعال بلزوم ترك التجسس عن عيوب الناس؛ لأن من بحث عن مكنون غيره بحث عن مكنون نفسه وربما طمَّ[٢] مكنونه علىٰ ما بُحِث عن مكنون غيره وكيف يَسْتَحْسِن مسلمٌ ثلب مسلم بالشيء الذي هو فيه.

قالت ابنة عبد الله بن مطيع الأسود لزوجها طلحة بن عبد الله بن عوف: ما رأيتُ أحدًا قط أَلأَمَ من أصحابك.

قال: مه[٣] لا تقولي ذاك فيهم وما رأيتِ مِن لؤمِهِم؟

قالت: أمْرًا والله بَيِّنًا.

قال: وما هو؟

---

(١) الغِرَّة: الغفلة. «النهاية» (٢/ ٢٩٧).

(٢) أي: غلب.

(٣) مه: اسم فعل الأمر، ومعناه: اكفف. «مختار الصحاح» مادة: «مهه».

قالت: إذا أيسرت لزموك وإذا أعسرت جانبوك.

قال: ما زدتِ علىٰ أن وصَفْتِهم بمكارم الأخلاق.

قالت: وما هذا من مكارم الأخلاق؟

قال: يأتوننا في حال القوَّة منًّا عليهم ويفارقوننا في حال الضعف منًّا عليهم.

***

ذِكْرُ الحثّ على مُجَانَبَةِ الحِرْصِ لِلعَاقِلِ

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَهْرَمُ ابنُ آدمَ وتَشِبُّ منه اثنتان: الحرصُ والحَسَدُ**»[1] ركَّبَ الله جلَّ وعزَّ في البشر الحرص والرغبة في الدنيا الفانية لئلا تخرب إذ هي دار الأبرار ومكسب الأتقياء وموضع زاد المؤمنين واستجلاب الميرة[2] للصالحين ولو تعرىٰ الناس عن الحرص فيها بطلت وخربت فلم يجد المرء ما يستعين به علىٰ أداء فرائض الله فضلًا عن اكتساب ما يجدي عليه النفع في الآخرة نفلًا، والإفراط في الحرص مذموم.

وأنشدني محمد بن نصر المديني:

يَا كَثِيرَ الحِرْصِ مَشْغُوْ ... لًا بِدُنْيَا لَيْسَ تَبْقَىٰ

---

(١) رواه المصنف في الأصل من طريق بشر بن معاذ العقدي حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن أنس به لكن لفظة: «الحسد» تعتبر شاذة تفرد بها العقدي فقد خالفه جماعة رووا ذلك عن أبي عوانة وذكروا الحرص علىٰ العمر وهم خلف بن هشام البزار وسعيد بن الربيع ومحمد بن عبيد بن حساب وعبد الواحد بن غياث عند المصنف في «صحيحه» برقم (٣٢٢٩)، ويحيىٰ بن يحيىٰ وسعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد عند مسلم برقم (١٠٤٧) كلُّ هؤلاء رووه عن أبي عوانة به بلفظ: «**يهرم ابن آدم وتشب فيه اثنتان: الحرص علىٰ المال والحرص علىٰ العمر**» وهو عند البخاري من طريق هشام -- وهو الدستوائي -- عن قتادة عن أنس مرفوعًا به بلفظ: «**يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حب المال وطول العمر**» فعلىٰ هذا فلفظة: «الحسد» شاذة تفرد بها العقدي والله أعلم.

(٢) الميرة: الطعام يمتاره الإنسان ويدخره. انظر: «مختار الصحاح» مادة: «مير».

مَــا رَأيْــتُ الحِــرْصَ أدْنــىٰ مِــنْ حَــرِيْصٍ قَــطّ رِزْقــا
لا وَلَكِــنْ فِــي قَــضَا ءِ اللهِ أن يَعْيَــا وَيَــشْقَىٰ
تَعْــرِفُ الحَــقَّ وَلَكِــنْ لا تَــرَىٰ للحَــقِّ حَقَّــا

الحرص غير زائد في الرزق، وأهون ما يعاقب الحريص بحرصه أن يُمنع الاستمتاع بما عنده من محصوله فيتعب في طلب ما لا يدري أيلحقه أم يحول الموت بينه وبينه؟ ولو لزم الحريص ترك الإفراط فيه واتَّكل علىٰ خالق السماء لأتحفه المولىٰ جلَّ وعزَّ بإدراك ما لا يسعىٰ فيه والظفر بما لو سعىٰ فيه وهو حريص لتعذر عليه وجوده.

الحرص علامة الفقر كما أن البخل جلباب المسكنة، والبخل لقاح الحرص كما أن الحميَّة لقاح الجهل، والمنع أخو الحرص كما أن الأنفة توءمُ السَّفَه.

لا حَظَّ في الراحة لمن أطاع الحرص في الدنيا فيكون مذمومًا في الدارين، بل يكون قصده لإقامة فرائض الله ويكون لبغيته نهاية يرجع إليها؛ لأن من لم يكن لقصده نهاية آذىٰ نفسه وأتعب بدنه، فمن كان بهذا النعت فهو من الحرص الذي يُحمد.

وأنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري.

الحِـرْصُ عَـوْنٌ للزَّمَـانِ عَلَـىٰ الفَتَـىٰ وَالْـصَبْرُ نِعْـمَ القِـرْنُ[1] لِلأَزْمَـانِ
لا تَخْـضَعَنَّ فَـإنَّ دَهْـرَكَ إنْ رَأىٰ مِنْـكَ الخُـضُوعَ أمَـدَّهُ بِهَـوَانِ

---

(١) القِرن – بالكسر –: الكفْء والنظير في الشجاعة والحرب. «النهاية» (٢/ ٤٤٨).

وَإِذَا رَآكَ وقَــدْ قَــصَدْتَ لِـصَرْفِهِ بالـصَّبْرِ لاقَـىٰ الـصَّبْرَ بالإِذْعَـانِ[1]

وأَنْشَدَ شعيب بن أحمد لأبي العتاهية:

قَدْ شَابَ رَأسِي وَرَأسُ الحِرْصِ لَـمْ يَشِبِ إِنَّ الحَـرِيْصَ علـىٰ الـدُّنْيَا لَفِـي تَعَـبِ

مَـا لــي أَرَاني إِذَا حَاوَلْـتُ مَنْزِلَـةً فَنِلْتُهَـا طَمَحَـتْ نَفْـسِي إِلـىٰ رُتَـبِ

لَـوْ كَـانَ يَنْفَعُنِـي عِلْمِـي وَتَجْرِبَتِـي لَـمْ أَشْـفِ غَيْظِي مِنَ الـدُّنْيَا وَلا كَلَبِي[2]

---

(١) ذعن؛ أي: خضع وذل. «مختار الصحاح» مادة: «ذعن».

(٢) أي: شدة حرصي. انظر: «النهاية» (٢/ ٥٥٧).

ذِكْرُ الزَّجْرِ عن التَّحَاسُدِ والبَغْضَاءِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَبَاغَضُوا وَلَا تَحَاسَدُوا ولا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»(١).

الواجب علىٰ العاقل مجانبة الحسد علىٰ الأحوال كلِّها؛ فإن أهون خصال الحسد هو ترك الرضا بالقضاء وإرادة ضد ما حكم الله جلَّ وعلا لعباده ثم انطواء الضمير علىٰ إرادة زوال النِّعَمِ عن المسلم.

والحاسد لا تهدأ روحه ولا يستريح بدنه إلا عند رؤية زوال النعمة عن أخيه وهيهات أن يساعد القضاء ما للحساد في الأحشاء.

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

اعْذُر حَسُودَكَ فِيمَا قَدْ خُصِصْتَ بِهِ ... إن العُلا حَسَنٌ في مِثْلِهِ الحَسَدُ

إنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي لا أَلُومُهُمُ ... قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أهلُ الفضلِ قَدْ حُسِدُوا

فَدَامَ لِي ولَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمُ ... وَمَاتَ أكْثَرُنَا غَيْظًا بِمَا يَجِدُ

أَنَا الذِي وَجَدُونِي فِي صُدُورِهِمُ ... لا أَرْتَقِي صدْرًا مِنْهُمْ وَلا أَرِدُ

وأنشدني محمد بن نصر المديني لحبيب بن أوس:

وإذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيْلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

---

(١) الحديث رواه البخاري برقم (٦٠٦٤)، ومسلم برقم (٢٥٦٣).

لَـوْلَا اشْـتِعَالُ النَّـارِ فِيمَـا جَـاوَرَتْ مَـا كَـانَ يُعْـرَفُ طِيـبُ عَـرْفِ العُـوْدِ
لَـوْلَا التخـوّفُ للعَوَاقِـبِ لَـمْ تَـزَلْ لِلحَاسِـدِ النُّعْمَـىٰ علـىٰ المَحْـسُودِ

العاقل إذا خطر بباله ضرب من الحسد لأخيه أبلغ المجهود في كتمانه وترك إبداء ما خطر بباله.

وأكثر ما يوجد الحسد بين الأقران أو من تقارب في الشكل؛ لأن الكتبة لا يحسدها إلا الكتبة كما أن الحَجَبَةَ لا يحسدها إلا الحجبة، ولن يبلغ المرء مرتبة من مراتب هذه الدنيا إلا وجد فيها من يبغضه عليها أو يحسده فيها، والحاسد خصم معاند لا يجب للعاقل أن يجعله حكمًا عند نائِبَةٍ تَحْدُث؛ فإنه إن حكم لم يحكم إلا عليه، وإن قصد لم يقصد إلا له، وإن حرم لم يحرم إلا حظه وإن أعطىٰ أعطىٰ غيره، وإن قعد لم يقعد إلا عنه، وإن نهض لم ينهض إلا إليه، وليس للمحسود عنده ذنب إلا النعم التي عنده، فليحذر المرء ما وصفت من أشكاله وأقرانه وجيرانه وبني أعمامه.

قال رجل لشبيب بن شيبَّة[1]: إني لأُحبك قال: صدقت قال: وما أعلمك؟

قال: «لأنك لست بجارٍ ولا ابن عمّ».

الواجب علىٰ العاقل الحازم أن يوطِّن نفسه علىٰ تحمُّل مقاساة أَلَم الحسد من الحاسد فيه، وأكثر ما يوجد الحسد من الجيران والإخوان إذا تعرَّوا

(١) هو أبو معمر شبيب بن شيبة الأهتم التميمي الخطيب كان له لسان وفصاحة. «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٥٨)، و«الأعلام» (٣/ ١٥٦).

عن الديانة[١] ولزوم أسباب الصيانة، ثم من الأقارب؛ إذ الأقارب في الحقيقة عقارب إلا من عصمه الله وجانبه عن أمثالها في أهل الصناعة الذين لم يسلكوا مسلك ذوي الحِجىٰ[٢] ولا راموا محل أُولي النحل[٣] في مجانبة الدين في الأقوال ولزوم ضده بالآمال.

والحسد داعية إلىٰ النكد ألا ترىٰ إبليس؟ حسد آدم فكان حسده نكدًا علىٰ نفسه فصار لعينًا بعدما كان مكينًا، ويسهل علىٰ المرء ترضِّي كلّ ساخطٍ في الدنيا حتىٰ يرضىٰ إلا الحسود فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة التي حَسَد من أجلها[٤].

---

(١) لأن دين الإنسان يردعه عن تعاطي مثل ذلك.

(٢) أي: العقول انظر: «مختار الصحاح» مادة: «حجا».

(٣) أي: المذاهب انظر: «مختار الصحاح» مادة: «نحل».

(٤) ذكر ابن القيم في «بدائع الفوائد» ص (٤٦٣): عشرة أسباب لاندفاع شرّ الحاسد عن المحسود.

ذِكْرُ الحثِّ على مُجَانِبَةِ الغضَبِ وكَرَاهِيَّةِ العَجَلَةِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن[1] جابرًا قال: جاءَ رجلٌ إلىٰ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: عَلِّمْنِي شيئًا يا رسولَ اللهِ أَدْخُلُ بِهِ الجَنَّةَ ولا تُكْثِرْ عَلَيَّ لَعَلِّي أعقلُ. قال: «لا تَغْضَبْ»[2].

أحسنُ الناس عقلًا من لم يحرد[3] وأحضرُ الناس جوابًا من لم يغضب. وسرعة الغضب أنكىٰ في العاقل من النار في يَبَسِ العَوْسَج[4]؛ لأن من غضب زايله عقله فقال ما سَوَّلَتْ له نفسه وعمل ما شانه وأراده، وأنشدني الكريزي:

وَلَـمْ أرَ فَـضْلًا تَـمَّ إلَّا بِـشِيمَةٍ ... وَلَـمْ أرَ عَقْـلًا صَـحَّ إلَّا عَلـىٰ الأدَب

ولـم أرَ في الأعْـدَاءِ حِـيْنَ اخْتَبَـرتُهم ... عَدُوًّا لِعَقْلِ المرءِ أعْدَىٰ من الغَضَب

---

(١) كذا في الأصل وصوابه «أو جابر» كما في «العلل» للدارقطني (١٠/ ١٢٠).

(٢) الحديث رواه المصنف في «الأصل» من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة أن جابرًا به، وقد ذكر الدارقطني في «العلل» (١٠/ ١٢٠ - ١٢١) اختلاف الرواة علىٰ الأعمش يظهر من خلال ذلك أن المحفوظ عن أبي هريرة كما هو في «صحيح البخاري» (٦١١٦) وقد أشار الحافظ في «المطالب العالية» تحت حديث (٢٦١١) إلىٰ ذلك، فإن الحديث جاء عن أبي سعيد فقال: قلت: رجاله رجال الصحيح لكنه شاذ فإن المحفوظ عن أبي هريرة لا عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كذا هو في «الصحيح».

(٣) الحَرَد: هو الغضب. «مختار الصحاح».

(٤) العوسج: شجر من شجر الشوك. «لسان العرب» (٤/ ٣٣٢)، مادة: «عسج».

سرعة الغضب من شِيَمِ الحمقىٰ كما أن مجانبته من زيِّ العقلاء، والغضب بذر الندم، فالمرء علىٰ تركه قبل أن يغضب أَقْدَرُ منه علىٰ إصلاح ما أفسده بعد الغضب.

قال بكار بن محمد[1]: كان ابن عون[2] لا يغضب فإذا أغضبه إنسان، قال: بارك الله فيك؟

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

لَـمْ يأكـلِ النـاسُ شَـيْئًا مـن مـآكِلِهِمْ ... أحْلَـىٰ وَأحْمَـدَ عُقْبَـاهُ مِـن الغَـضَبِ

وَلا تلحَّـــفَ إنْـــسَانٌ بِمِلْحَفَـــةٍ ... أبْهَـىٰ وَأَزْيَـنَ مِـن دِيـنٍ وَمِـنْ أَدَبِ

الواجب علىٰ العاقل إذا ورد عليه شيء بِضِدِّ ما تهواه نفسه أن يذكر كثرة عصيانه ربَّه وتواتر حلم الله عنه ثم يسكن غضبه ولَا يُذْري بعقله بالخروج إلىٰ ما لا يليق بالعقلاء في أحوالهم مع تأمُّل وفور الثواب في العقبىٰ بالاحتمال ونفي الغضب.

لو لم يكن في الغضب خصلة تُذم إلا إجماع الحكماء قاطبةً علىٰ أن الغضبان لا رأي له لكان الواجب عليه الاحتيال لمفارقته بكلِّ سبب، والغضبان لا يعذره أحدٌ في طلاق ولا عتاق، ومن الفقهاء من عذر السكران في الطلاق

---

(١) هو بكار بن محمد بن عبد الله بن محمد بن سيرين البصري مات سنة (٢٢٤ هـ) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٣٩٧).

(٢) هو عبد الله بن عون بن أرطبان المزني أبو عون البصري مات سنة (١٥١ هـ)، وقيل غير ذلك «تهذيب الكمال» (١٥/ ٣٩٤).

والعتاق، والخَلْقُ مجبولون علىٰ الغضب والحِلْم[١] معًا فمن غضب وحَلُمَ في نفس الغضب فإن ذلك ليس بمذموم ما لم يخرجه غضبه إلىٰ المكروه من القول والفعل علىٰ أن مفارقته في الأحوال كلِّها أحمد.

قال عبد الملك بن مروان[٢]: إذا لم يغضب الرجل لم يَحْلُم؛ لأن الحليم لا يعرف إلا عند الغضب.

---

(١) الحِلْمُ - بالكسر - الأناة أما الحُلْمُ - بضم اللام وسكونها -: ما يراه النائم. «مختار الصحاح» مادة: «حلم».

(٢) هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أُمية الخليفة الفقيه أبو الوليد الأُموي سنة (٨٦ هـ). «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٤٦)، «شذرات الذهب» (١/ ٩٥).

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَن الطَّمَعِ إلي النَّاسِ

عن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: جاء رجل إلىٰ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، علمني عملًا إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس فقال: «**ازْهَدْ في الدُّنيا يُحِبَّكَ اللهُ، وازْهَدْ فيما في أيدي الناسِ يُحِبَّكَ الناس**»(١).

الواجب علىٰ العاقل ترك الطمع إلىٰ الناس كافَّةً بكمال الإياس عنهم إذ الطمع فيما لا يُشَكُّ في وجوده فقر حاضر فكيف بما أنت شاكٌّ في وجوده أو عدمه؟

ولقد أحسن الذي يقول:

لأجْعَلَنَّ سَبِيلَ اليَأس لي سُبُلَا مَا عِشتُ مِنْكَ وَدَارَ الهَمِّ أوطانا

وَالصَّبْر أجَعَلُهُ عَزْمًا أنَالُ بِهِ في النَّاسِ قُرْبًا وَعِنْدَ اللهِ رِضْوَانا

فَالنَّفْسُ قَانِعَةٌ والأرضُ واسِعَةٌ والدَّارُ جَامِعَةٌ مَثْنىٰ ووحْدَانا

أشرف الغِنَىٰ ترك الطمع إلىٰ الناس إذ لا غنىٰ لذي طمع، وتارك الطمع

(١) رواه المصنف في «الأصل» من طريق عمرو بن خالد – وهو الواسطي – وخالد هذا قال فيه البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: متروك الحديث ضعيف، وقال أبو داود: ليس بشيء وقال النسائي: ليس بثقة، وقال صالح بن محمد: كان يضع، بل قال ابن حبان نفسه: كان ينفرد عن الثقات بالموضوعات لا يحلّ الاحتجاج بخبره.

بيد أن الألباني حسنه في «الصحيحة» برقم (٩٤٤)، وضعفه شيخنا الوادعي وللفائدة انظر رسالة «بذل الجهد في تحقيق حديثي السوق والزهد» بتقديم شيخنا الوادعي.

يجمع به غاية الشرف، فطوبىٰ لمن كان شعارُ قلبِهِ الورع ولم يُعْمِ بَصَرَه الطَّمَعُ.

ومن أحب أن يكون حرًّا فلا يهوىٰ ما ليس له؛ لأن الطمع فقرٌ كما أن اليأس غِنًىٰ، ومن طمع ذلَّ وخضع كما أن من قنع عفَّ واستغنىٰ.

الطمع غُدَّة من قلب المرء له طرفان:

أحدهما: القيد في رجليه.

والآخر: الطَّبَع[1] علىٰ لسانه.

فما دامت الغدَّة قائمة لا تنفكُّ رجلاه ولا ينطق لسانه، فإذا أخرج الطمع من قلبه انفكَّ القيد من رجليه وزال الطَّبَع عن لسانه.

العاقل يجتنب الطمع إلىٰ الأصدقاء فإنَّه مَذَلَّة، ويلزم اليأس عن الأعداء فإنه منجاة وتركه مهلكة، والإياس هو بذر الراحة والعز كما أن الطمع هو بذر التعب والذل، فكم من طامع تعب وذلَّ ولم ينل بغيته، وكم من آيس استراح وتعزَّز وقد أتاه ما أمَّل وما لم يأمل.

وأنشدني الأبرش:

يَعْرَىٰ ويغْرثُ[2] مَنْ أمْسَىٰ علىٰ طَمَعٍ   مِنَ المَكارِمِ وَهْوَ الطَّاعِمُ الكَاسي

إنَّ المَطَامِعَ ذلٌّ للرِّقَابِ وَلَو   أَمْسَىٰ أخوهَا مكانَ السيِّد الرَّاسِ

---

(١) أي: الطبع علىٰ اللسان.

(٢) أي: يجوع. «مختار الصحاح» مادة: «غرث».

عن بدل قال معاوية بن عمار[١] عن أبي جعفر[٢]: اليأس عما في أيدي الناس عزٌّ ثم قال: أما سمعت قول حاتم الطائي:

إذَا مَـا عَرَفْـتَ اليـأسَ أَلفَيْتَـهُ الغِنـىٰ ... إذَا عَرَفَتْـهُ الـنَّفْسُ والطَّمَـعُ الفَقْـرُ

❋

(١) هو معاوية بن عمار بن أبي معاوية الدُّهني البجلي الكوفي «تهذيب الكمال» (٢٨/ ٢٠٢)، «من تُكُلِّم فيه وهو موثق أو صالح الحديث» ص (٤٨٨) للذهبي، تحقيق: عبد الله الرحيلي.

(٢) هو أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي مات سنة (١١٨ هـ) «تهذيب الكمال» (٢٦/ ١٣٦).

ذكرُ الحثِّ على مُجانبةِ المسألةِ وكَراهيتِها

عن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلًا فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ مِن حَطَبٍ**[1] **فَيَبِيعَهَا خَيْرٌ**[2] **لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ**»[3].

الواجب على العاقل مجانبة المسألة على الأحوال كلِّها ولزوم ترك التعرّض؛ لأن الإفكار في العزم على السؤال يورث المرء مهانة في نفسه ويحطُّهُ رتوةً[4] عن مرتبته، وترك العزم على الإفكار في السؤال يورث المرء عزًّا في نفسه ويرفعه درجةً عن مرتبته.

قال موسى بن طريف[5]: إن الحاجة تعرض لي إلى الرجل فيخرج عِزِّي من قلبي قطع الحاجة من ناحيته فيرجع عزي إلى قلبي.

---

(١) في البخاري: «**بحزمة الحطب على ظهره**».

(٢) في البخاري: «**فيبيعها فيكفّ الله بها وجهه**».

(٣) رواه البخاري برقم (١٤٧١).

(٤) الرَّتوة: الخطوة، وهي المراد هنا، وفي حديث معاذ: «**أنه يتقدم العلماء يوم القيامة برتوة**»؛ أي: برمية سهم، وقيل: بميل، وقيل: مَدَى البصر. انظر: «النهاية» (١/ ٦٣٤).

(٥) هو موسى بن طريف الأسدي الكوفي من الأئمة من ضعفه، ومنهم من كذبه. يُنظر: «الكامل» (٨/ ٥٣)، و«ميزان الاعتدال» (٤/ ٢٠٨).

أَنْشَدَ الحسن بن أحمد لعلي بن الجهم:

هِيَ النَّفْسُ مَا حَمَّلْتَهَا تَتَحَمَّلُ ... ولِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تَجُورُ وتَعْدِلُ

وَعَاقِبَةُ الصَّبْرِ الجَمِيلِ جَمِيلَةٌ ... وأفْضَلُ أخلاقِ الرجالِ التَّفَضُّلُ

فَلا عَارَ إن زَالَتْ عَنِ الحُرِّ نِعْمَةٌ ... وَلَكِنَّ عَارًا أن يَزُولَ التَّجَمُّلُ

العاقل لا يسأل الناس شيئًا فيردوه ولا يلحِف[١] في المسألة فيحرموهُ ويلزم التَّعَفُّف والتكرم ولا يطلب الأمر مدبرًا ولا يتركه مقبلًا؛ لأن فوت الحاجة خير من طلبها إلىٰ غير أهلها، وإن من يسأل غير المستحق حاجة[٢] حطَّ لنفسه مرتبتين ورفع المسئول فوق قدره.

قال سفيان بن عيينة[٣]: «**من يسأل نذلًا حاجةً فقد رفعه عن قدره**».

أنشدني ابن زنجي البغدادي:

ذُلُّ السُّؤالِ شَجًىٰ في الحَلْقِ مُعْتَرِضٌ ... مِنْ دُونِهِ شَرَقٌ[٤] من خَلْفِهِ جَرَضُ[٥]

---

(١) أي: يلح، يقال: أَلْحَفَ في المسألة يلحف إلحافًا إذا أَلَحَّ فيها ولزمها. «النهاية» (٢/ ٥٩٠).

(٢) قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٨٢) فالعبد لا بد له من الرزق وهو محتاج إلىٰ ذلك إذا طلب رزقه من الله صار عبدًا فقيرًا إليه، وإن طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا إليه.

(٣) هو سفيان بن عيينة بن ميمون العلامة الحافظ شيخ الإسلام أبو محمدٍ الهلالي الكوفي مات سنة (١٩٨ هـ) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٦٢).

(٤) الشَّرَق، بفتحتين: الشَّجَا والغُصَّة. «مختار الصحاح»، مادة: «شرق».

(٥) الجَرَض، بالتحريك: الرِّيق يَغَصُّ به وجَرَضَ بريقه غَصَّ كأنه يبتلعه. «لسان العرب» (١/ ٤٠٩) مادة: «جَرَض».

مَا مَاءُ كَفِّكَ إنْ جَادَت وإنْ بَخِلَتْ مِنْ مَاءِ وَجْهِي إذا أفْنَيْتُه عِوَضُ

أعظم المصائب سوءُ الخَلَف والمسألة من الناس، والهمُّ بالسؤال نصف الهرم فكيف المباشرة بالسؤال؟ ومن عزَّت عليه نفسه صغُرَت الدنيا في عينيه ولا يَنْبُلُ حتىٰ يعفَّ عما في أيدي الناس ويتجاوز عما يكون منهم، والسؤال من الإخوان مَلال ومن غيرهم ضد النَّوال.

لا يجب للعاقل أن يبذل وجهه لمن يكرم عليه قدره ويعظم عنده خَطَره فكيف بمن يهون عليه ردّه ولا يكرُم عليه قدره؟ وأبعد اللِّقاء الموت، وأشد منه الحاجة إلىٰ الناس دون السُّؤال، وأشدُّ منه التكلُّف بالسؤال؛ لأن السؤال إذا كان بنجاح الحاجة مقرونًا لم يخلُ من أن يكون فيه ذلٌّ وإذا الحاجة لم تُقْضَ كان فيه ذلَّان موجودان: ذلُّ السؤال وذلُّ الردِّ(١).

***

(١) قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٨٢): ولهذا كانت مسألة المخلوق محرَّمَة في الأصل وإنما أُبيحت للضرورة وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد.

قلت: وقد جمع شيخنا الوادعي رَحِمَهُ اللهُ من ذلك رسالة سماها «ذم المسألة» ودرَّسها طلابه وفي عام ١٤٢٢ هـ فترة علاجه بمكة أهدىٰ نسخة منها لشيخنا ربيع المدخلي حفظه الله مناولة فلما أخذها شيخنا ربيع قال: إن هذه الرسالة تعدل عندي كتبك لأنها تمثل منهجنا ودعوتنا وفي عام ١٤٣٠ هـ سألت شيخنا ربيعًا قائلًا له: ماذا تريدون بقولكم هذا فقال: العفَّة والزهد والورع؛ لأن الأموال مغرية.

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ القَنَاعَةِ

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخذ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِيَّ وقال: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»(١).

فقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عمر في هذا الخبر أن يكون في الدنيا كأنه غريب وعابر سبيل فكأنه أمره بالقناعة باليسير من الدنيا إذ الغريب وعابر السبيل لا يقصدان في الغَيْبَة الإكثار من الثروة بل القناعة إليهما أقرب من الإكثار من الدنيا(٢).

---

(١) رواه البخاري برقم (٦٤١٦)، وفيه وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك.

(٢) فينبغي للمؤمن أن يكون حاله فيها على أحد حالين: إما أن يكون كأنه غريب مقيم في بلد غربةٍ همُّه التزود للرجوع إلى وطنه أو يكون كأنَّه مسافر غير مقيم البتة بل هو ليله ونهاره يسير إلى بلد الإقامة فلهذا أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابن عمر أن يكون في الدنيا على أحد حالين:

أحدهما: أن ينزل المؤمن نفسه كأنه غريب في الدنيا يتخيل الإقامة لكن في بلد غربة فهو غير متعلق القلب ببلد الغربة بل قلبه متعلق بوطنه الذي يرجع إليه وإنما هو مقيم في الدنيا ليقضي مَرَمَّة جهازه إلى الرجوع إلى وطنه، قال الفضيل بن عياض: المؤمن في الدنيا حزين همُّه مَرَمَّة جهازه.

ومن كان في الدنيا كذلك فلا هم له إلا في التزوُّد بما ينفعه عند عودِهِ إلى وطنه، فلا ينافس أهل البلد الذي هو غريب بينهم في عزِّهم ولا يجزع من الذُّلِّ عندهم. قال الحسن: المؤمن في الدنيا كالغريب لا يجزع من ذلِّها ولا ينافس في عزِّها، له شأن وللناس شأن.

الحال الثاني: أن ينزل المؤمن نفسه في الدنيا كأنه مسافر غير مقيم البتة وإنما هو سائر في قطع منازل السفر حتى ينتهي به السفر إلى آخره وهو الموت، ومن كانت هذه حاله في الدنيا فَهِمَّتُه تحصيل الزاد للسفر وليس له هِمَّةٌ في الاستكثار من متاع الدنيا ... انتهى من «جامع العلوم =

وأنشدني عليٌّ بن محمد البسَّامي:

مِـنْ تَمَـامِ العَـيْشِ مَـا قـرَّت بِـهِ ... عَـيْنُ النِّعْمَـةِ أثْـرَىٰ أوْ أقَـلْ

وَقَلِيـلٌ أنْـتَ مَـسْرُورٌ بِـهِ ... لَـكَ خَيْـرٌ مِـنْ كَثِيـرٍ في دَغَـلْ[(١)]

من أكثر مواهب الله لعباده وأعظمها خطرًا القناعة وليس شيء أروَحَ للبدن من الرضا بالقضاء والثقة بالقاسم ولو لم يكن في القناعة خصلة تحمد إلا الراحة وعدم الدخول في مواضع السوء لِطَلَبِ الفضل لكان الواجب علىٰ العاقل أن لا يفارق القناعة علىٰ حالةٍ من الأحوال.

قال محمد بن المنكدر[(٢)]: «القناعةُ مالٌ لا يَنْفَد».

وأنشدني محمد بن إسحاق الواسطي:

الحَمْـدُ للهِ حَمْـدًا دائِمًـا أَبَـدًا ... لَقَـدْ تَـزَيَّنَ أهْـلُ الحِـرْصِ والـشَّيْنِ

لا زَيْـنَ إلا لِـرَاضٍ فِـي تَقَلُّلِـهِ ... إنّ القَنُـوعَ لثـوبُ العـزِ والـدِّينِ

العاقل يعلم أن الإنسان لم يوضع علىٰ قدر الأخطاء وأن من عُدِمَ القناعة لم يزدْه المالُ غنًى، فَتَمَكُّن المرء بالمال القليل مع قِلَّةِ الهمِّ أهنأ من الكثير ذي التبعة، والعاقل ينتقم من الحرص بالقنوع كما ينتصر من العدو بالقصاص؛ لأن السَّبب المانعَ رِزْقَ العاقل هو السببُ الجالبُ رِزْقَ الجاهلِ.

=

والحكم» (٢/ ٣٧٨ - ٣٧٩ و ٣٨١).

(١) الدَّغل، بفتحتين: الفساد. «مختار الصحاح»، مادة: «دغل».

(٢) هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهُدَيْر المدني ثقة فاضل «تقريب التهذيب» ترجمة برقم (٦٣٦٧)، ط دار العاصمة.

وأنشد رجل من خزاعة:

رأيْـتُ الغنَـىٰ والفَقْـرَ حَظَّـينِ قُـسِّمَا ... فَيُحْـرَمُ مُحْتَـالٌ وذو العـيِّ كاسِـبٌ

فهــذا مُلِــحٌّ دَائِــبٌ غيــرُ رابــحٍ ... وَهَــذَا مُــرِيْحٌ رَابِــحٌ غَيْــرُ دائِــبِ

القناعة تكون بالقلب فمن غنِي قلبه غنيت يداه، ومن افتقر قلبه لم ينفعه غناه، ومن قنع لم يتسخَّط وعاش آمنًا مطمئنًّا ومن لم يقنع لم يكن له في الفوائت نهاية لرغبته، والجدّ والحرمان كأنهما يصطرعان بين العباد.

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ التَوكُّلِ
على مَنْ ضَمِنَ الأَرْزَاق

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**قَدَّرَ اللهُ المَقادِيرَ قَبْلَ أن يَخْلُقَ السَّمواتِ والأرضَ بخمسمائةِ سَنَةَ**»(١) .

الواجب علىٰ العاقل لزوم التوكُّل علىٰ من تكَفَّلَ بالأرزاق؛ إذ التوكُّل هو نظام الإيمان وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدِّي إلىٰ نفي الفقر ووجود الراحة، وما توكَّلَ أحد علىٰ الله جلَّ وعلا من صحة قلبه حتىٰ كان الله جلَّ وعلا بما تضمَّن من الكفالة أوثق عنده بما حوته يده إلا لم يَكِلْه الله إلىٰ عباده وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب.

---

(١) رواه المصنف في «الأصل» من طريق زكريا بن يحيىٰ الساجي أنبأنا أبو الربيع الزهراني حدثنا المقرئ حدثنا حَيْوةُ بن شريح وابن لَهِيعَة قالا: حدثنا أبو هانئ الخولاني قال: سمعت أبا عبد الرحمن الحُبُلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول، وذكره.

وهو حديث رجاله ثقات سوىٰ ابن لهيعة ولكنه مُتابَع بيد أن قوله: «**بخمسمائة سنة**» خطأ وصوابه: «**بخمسين ألف سنة**» كما رواه ابن حبان نفسه في «صحيحه» برقم (٦١٣٨) من طريق زكريا الساجي به بلفظ: «**خمسين ألف سنة**» وكذلك رواه أحمد (٢/ ١٦٩) من طريق عبد الله ابن يزيد المقرئ عن حيوة وابن لهيعة به إلا أنه لم يذكر اسم ابن لهيعة لكنه ذكر أن الساجي زاد مع حيوة آخر، بل الحديث عند مسلم في «صحيحه» برقم (٢٦٥٣)، من طريق ابن وهب عن أبي هانئ الخولاني به بلفظ: «**خمسين ألف سنة**».

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه».

أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

لَوْ كَانَ فِي صَخْرَةٍ فِي البَحْرِ رَاسِيَةٍ ... صَمَّاءَ مَلْمومَةٍ ملسٍ حَوَاليها

رِزقٌ لِعَبْدٍ بَرَاهُ اللهُ لانْفَلَقَتْ ... حَتَىٰ تؤدّي إليهِ كلَّ ما فيها

أَوْ كَانَ بَيْنَ طباقِ السَّمْع مَطْلَبُه ... يَوْمًا لَسَهَّلَ فِي المَرْقَىٰ مَرَاقِيها

حَتَىٰ يَنَالَ الذِي فِي اللَّوحِ خُطَّ له ... إنْ هِي أَتَتْهُ وإلَّا فَهْوَ آتِيْهَا

الواجب علىٰ العاقل أن يعلم أن السبب الذي يُدْرِكُ به العاجزُ حاجتَه هو الذي يحول بين الحازم وبين مصادفته؛ فلا يجب أن يحزن العاقل لما يهوىٰ وليس بكائن ولا لِمَا يهوىٰ وهو لا محالة كائن فما كان من هذه الدنيا أتىٰ المرءَ من غير تعب فيه وما كان عليه لم يدفعه بقوته، ولا يُدْرِكُ بالطلب المحرومُ كما لا يُحْرم بالقعود المرزوقُ.

التَّوكُّلُ هو قطع القلب عن العلائق برفض الخلائق وإضافته بالافتقار إلىٰ محوِّل الأحوال، وقد يكون المرء موسرًا في ذات الدنيا وهو متوكل صادق في توكله إذا كان العدم والوجود عنده سِيَّان لا فرق عنده بينهما يشكر عند الوجود ويرضىٰ عند العدم، وقد يكون المرء لا يملك شيئًا من الدنيا بحيلة من الحيل وهو غير متوكل إذا كان الوجود أحبَّ إليه من العدم فلا هو في العدم يرضىٰ حالته ولا عند الوجود يشكر مرتبته(١).

---

(١) وحقيقة التوكل هو اعتماد القلب علىٰ الله وحده مع الأخذ بالأسباب وأما من عطل السبب وزعم أنه متوكل فهو مغرور مخدوع متمنٍّ كمن عَطَّل النكاح والتسرّي وتوكل في حصول =

وأنشدني الكُرَيْزِي:

فلـــو كَانَـــتِ الـــدُّنْيَا تُنَـــالُ بفطنـــةٍ وفَـضْلِ عُقـولٍ نِلْـتُ أعْلـىٰ المَرَاتِـبِ

وَلَكِنّمَـــا الأَرْزَاقُ حَـــظٌّ وقِـــسْمَةٌ بِمِلْـــكِ مليـــكٍ لا بِحيْلَـــةِ طَالِـــبِ

=

الولد، وعطل الحدث والبذر وتوكل في حصول الزرع، وعطل الأكل والشرب وتوكل في حصول الشبع والري، انظر: «الفوائد» ص (٢٢٥) و«الروح» ص (٢٥٤)، كلاهما لابن القيم.

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ الرِّضَا بالشَّدَائِدِ والصَّبْرِ عَلَيْهَا

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أوَّل ما خَلَقَ اللهُ القلمُ ثُمَّ أَمَرَهُ فَكَتَبَ ما يكونُ إلىٰ يوم القِيَامةِ**»(١).

الواجب علىٰ العاقل أن يوقن أن الأشياء كُلَّها قد فُرغ منها، فمنها ما هو كائن لا محالة وما لا يكون فلا حيلة للخلق في تكوينه فإن دَفَعَه الوقت إلىٰ حال شدَّة يجب أن يَتَزِر بإزارٍ له طرفان:

أحدهما: الصبر.

والآخر: الرضا؛ ليستوفي كمال الأجرِ لفعله ذلك، فكم من شدَّة قد صَعُبت وتعذر زوالها علىٰ العَالَم بأسره ثم فرج عنها السهل في أقل من لحظة.

أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

عَسَىٰ فَرَجٌ يأتي به اللهُ إنَّهُ ... لَهُ كُلَّ يَوْمٍ في خَلِيْقَتِهِ أمْرُ

عَسَىٰ مَا تَرىٰ أن لا يَدُومَ وأن تَرَىٰ ... لَه فَرَجًا ممَّا ألَحَّ بِهِ العُسْرُ

إذَا اشْتَدَّ عُسْرٌ فارْجُ يُسْرًا فَإنَّهُ ... قَضَىٰ اللهُ أنَّ العُسْرَ يَتْبَعُهُ اليُسْرُ

يجب علىٰ العاقل إذا كان مبتدئًا أن يلزم عند ورود الشدَّة عليه سلوك

(١) الحديث رواه ابن أبي عاصم في «السنة» برقم (١٠٨) وأبو يعلىٰ برقم (٢٣٢٩) والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٩ / ٣) وغيرهم، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (١٣٣).

الصبر فإذا تمكن منه حينئذٍ يرتقي من درجة الصبر إلىٰ درجة الرضا، فإن لم يرزق صبرًا فليلزم التصبُّر؛ لأنه أول مراتب الرضا، ولو كان الصبر من الرجال لكان رجلًا كريمًا إذ هو بذر الخير وأساس الطاعات.

الصبر جماع الأمر ونظام الحزم ودعامة العقل وبذر الخير وحيلة من لا حيلة له.

وأول درجته الاهتمام ثم التيقُّظ ثم التثبُّت ثم التصبُّر ثم الصبر ثم الرضا وهو النهاية في الحالات.

قال ميمون بن مهران[1]: ما نال عبد شيئًا من جسيم الخير من نبيٍّ أو غيره إلا بالصبر.

أنشد الغلابي:

إنِّـي رَأَيْـتُ الخَيْـرَ في الـصَّبْرِ مُـسْرِعًا ... وحَـسْبُكَ مِـنَ صَـبْرٍ تَحُـوزُ بِـهِ أجـرا

عَلَيْـــكَ بِتَقْـــوَىٰ اللهِ في كُـــلِّ حَالَـــةٍ ... فَإِنَّـــكَ إنْ تَفْعَـــلْ تـــصِيبُ بِـــهِ أَجْـــرا

الصبر علىٰ ضروب ثلاثة:

فالصبر عن المعاصي، والصبر علىٰ الطاعات، والصبر عند الشدائد والمصيبات، فأفضلها الصبر عن المعاصي.

فالعاقل يدبر أحواله بالتثبُّت عند الأحوال الثلاثة التي ذكرناها بلزوم

---

(١) هو ميمون بن مهران الإمام القدوة أبو أيوب الدقي عالم أهل الجزيرة مات سنة (١١٧هـ) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٩٨).

الصبر علىٰ المراتب التي وصفناها قبلُ حتىٰ يرتقي به إلىٰ درجة الرضا عن الله جلَّ وعلا في حال العسر واليسر معًا، أسأل الله الوصول إلىٰ تلك الدرجة بِمَنِّه[1].

❊

(١) انظر: «عدة الصابرين» (ص٢٦ – ٢٧) و«الفوائد» (ص ١١٧) كلاهما لابن القيم.

ذِكْرُ الحَثّ على العَفْوِ عَنِ الجَاني

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتىٰ رجل فقال: يا رسول الله إن لي قرابة أَصِلُهم ويقطعوني، ويسيئون إليَّ وأُحسن إليهم، ويجهلون عليَّ وأحلم عنهم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لَئِنْ كانَ كَمَا تَقُولُ فَكَأَنَّمَا تسفُّهُمُ المَلَّ[1] وَلا يَزَالُ مِنَ اللهِ مَعَكَ ظَهيرٌ[2] ما زِلْتَ عَلَىٰ ذَلِكَ»**[3].

الواجب علىٰ العاقل توطين النفس علىٰ لزوم العفو عن الناس كافةً وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشدّ من الاستعمال بمثلها.

ولقد أنشدني منصور بن محمد الكريزي:

سَأُلْزِمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَن كلِّ مُذْنِبٍ ... وإنْ كَثُـرَتْ مِنْـهُ إلـيَّ الجَـرائِمُ
فَمَـا النـاسُ إلَّا واحِـدٌ مِـنْ ثَلَاثَـةٍ ... شَـرِيفٌ ومَـشْرُوفٌ ومثـلٌ مقَـاوِمُ
فأمَّـا الـذي فَـوْقِي فـأعْرِفُ فَـضْلَهُ ... وأَتْبَـعُ فيـهِ الحَـقَّ والحَـقُّ لازِمُ
وأمَّـا الـذي دُوني فـإن قَـالَ صُنْت عَـنْ ... إجَابَتِـهِ عِرْضِـي وإنْ لَامَ لائِـمُ
وأمَّـا الـذي مِثْلِـي: فـإن زَلَّ أوْ هَفَـا ... تَفَـضَّلْتُ إن الحلْـمَ للفَـضْلِ حَـاكِمُ

(١) الملُّ: هو الرماد الحار «مختار الصحاح»، مادة: «ملل».
(٢) الظهير: المعين. «مختار الصحاح»، مادة: «ظهر».
(٣) الحديث رواه مسلم برقم (٢٥٥٨).

من أراد الثواب الجزيل واسترهان الوُدِّ الأصيل وتوقع الذكر الجميل فليتحمل من ورود يثقَلِ الرَّدَىٰ ويتجرَّع مرارة مخالفة الهوىٰ باستعمال السنة التي ذكرناها في الصلة عند القطع والإعطاء عند المنع والحلم عند الجهل والعفو عند الظلم لأنه من أفضل أخلاق أهل الدين والدنيا.

الواجب علىٰ العاقل لزوم الصفح عند ورود الإساءة عليه من العَالَمِ بأسرهم رجاء عفو الله جلَّ وعلا عن جناياته التي ارتكبها في سالف أيامه؛ لأن صاحب الصفح إنما يتكلف الصفح بإيثاره الجزاء، وصاحب العقاب وإن انتقم كان إلىٰ الندم أقرب، فأما من له أخٌ يَوَدُّه فإنه يحتمل عنه الدهر كُلَّهُ زلاتِه.

أنشدني علي بن محمد البسامي:

إذَا لَـمْ تُجَـاوِز عَـن أخ لَـكَ عَثْـرةً ... فَلَـسْتَ غَـدًا عَـنْ عَثْرَتـي مُتَجَـاوِزا

وكَيْـفَ يُرَجّيـكَ البَعِيـدُ لِنَفْعِـهِ ... إذا كـانَ عَـنْ مَـوْلاكَ بِـرُّك عَـاجِزا

أغنىٰ الناس عن الحقد من عظم عن المجازاة، وأجلُّ الناس مرتبةً من صدَّ الجهلَ بالحلم، وما الفضل إلا لمن يحسن إلىٰ من أساء إليه، فأما مجازاة الإحسان إحسانًا فهو المساواة في الأخلاق، فلربما استعملها البهائم في الأوقات، ولو لم يكن في الصفح وترك الإساءة خصلة تحمد إلا راحة النفس ووداع القلب لكان الواجب علىٰ العاقل ألَّا يكدِّر وقته بالدخول في أخلاق البهائم بالمجازاة عن الإساءة إساءة، ومن جازىٰ بالإساءةِ إساءة فهو المسيء وإن لم يكن بادئًا.

***

ذِكْرُ صِفَةِ الكَرِيمِ وَاللَّئِيمِ

عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قيل: يا رسول الله! أيّ الناس أكرم؟ قال: «**أَكْرَمُهُمْ عندَ اللهِ أَتْقَاهُمْ**» قالوا: ليس عن هذا نسألُك؟ قال: «**فَعَن مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْألوني؟**» قالوا: نعم قال: «**خِيَارُكُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيارُكُم فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا**»(١).

أكرم الناس من اتَّقىٰ الله والكريم التقي.

والتقوىٰ: هي العزم علىٰ إتيان المأمورات والانزجار عن جميع المزجورات، فمن صح عزمه علىٰ هاتين الخصلتين فهو التقيُّ الذي يستحقُّ اسم الكرم، ومن تعرَّىٰ عن استعمالهما أو أحدهما أو شعبة من شعبهما فقد نقص من كرمه مثله.

قال زيد بن ثابت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ثلاث خصال لا تجتمع إلا في كريم: «حسنُ المحضر واحتمالُ الزَّلَّة وقلَّةُ الملالة».

وأنشدني ابن زنجي البغدادي:

رَأَيْتُ الحَقَّ يَعْرِفُهُ الكَرِيمُ ... لِصَاحِبِهِ ويُنْكِرُهُ اللَّئِيمُ

إِذَا كَانَ الفَتَىٰ حَسَنًا كَرِيمًا ... فَكُلُّ فِعَالِهِ حَسَنٌ كَرِيمُ

---

(١) الحديث رواه البخاري برقم (٣٣٨٣)، ومسلم برقم (٢٣٧٨).
وفيه زيادة «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله».

وإنْ أَلْفَيْتُهُ سَمِجًا لئيمًا   فَكُلُّ فِعَالِهِ سَمِجٌ[١] لَئِيمُ

الكريم لا يكون حقودًا ولا حسودًا ولا شامتًا ولا باغيًا ولا ساهيًا ولا لاهيًا ولا فاجرًا ولا فخورًا ولا كاذبًا ولا ملولًا، ولا يقطع إلْفَه، ولا يؤذي إخوانه، ولا يضيع الحِفَاظَ، ولا يَجْفُو في الوداد، يعطي من لا يرجو، ويؤَمِّن من لا يخاف، ويعفو عن قدرة، ويصل عن قطيعة.

الكريم يلين إذا استُعطِف، واللئيم يقسو إذا أُلطِفَ، والكريم يُجِلُّ الكرام ولا يهين اللئام، ولا يؤذي العاقل، ولا يمازح الأحمق، ولا يعاشر الفاجر مؤثرًا إخوانه على نفسه، باذلًا لهم ما ملك إذا اطلع على رغبةٍ من أخ لم يدع مكافأتها وإذا عُرِفَت منه مودَّة لم ينظر في قلق العداوةِ وإذا أعطاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيءٍ من الأشياء.

الكريم محمود الأثر في الدنيا، مرضيُّ العمل في العقبى، يُحبُّه القريب والقاصي ويألفه المتسخِّط والراضي، يفارقه الأعداء واللئام ويصحبه العقلاء والكرام.

وما رأيت شيئًا أكثر عملًا في نقص كرم الكريم من الفقر سواء كان ذلك بالقلب أو بالموجود.

ولقد أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

لعَمْرُكَ إنَّ المَالَ قَدْ يَجْعَلُ الفَتَى   نَسِيًّا وإنْ الفَقْرَ بالمَرءِ قَدْ يُزْرِي

ولا رَفَعَ النَّفْسَ الدنيَّةَ كالغِنَى   ولا وضَعَ النَّفسَ الكَرِيمَةَ كالفَقْرِ

---

(١) أي: قبيح. سَمُج الشيء – بالضم – سماجة فهو سمج؛ أي: قَبُح فهو قبيح. «النهاية» (١/ ٨٠٢).

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَن قَبُولِ قَوْلِ الوُشَاةِ

عن أبي وائل عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه بلغه أن رجلًا يَنِمُّ الحديث فقال حذيفة: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّام**»[١].

الواجب على الناس كافةً مجانبة الإفكار في السبب الذي يؤدي إلى البغضاء والمشاحنة بين الناس والسعي فيما يفرِّق جمعهم ويشتت شملهم، والعاقل لا يخوض في الإفكار فيما ذكرنا ولا يقبل سعاية الواشي بحيلة من الحيل؛ لعلمه بما يركب الواشي من الإثم في العقبى بفعله ذلك.

وأنشدني الكريزي:

مَنْ نَمَّ فِي النَاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارِبُه ... عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيه

كالسَّيْلِ باللَّيلِ لا يَدْرِي بِهِ أحَدٌ ... مِن أيْنَ جاءَ ولا مِنْ أيْنَ يأتِيهِ

فالْوَيْلُ لِلْعَهْدِ مِنْهُ كَيْفَ يَنْقُضُهُ ... والْوَيْلُ لِلْوُدِّ مِنْهُ كَيْفَ يَفنِيه

الواجب على العاقل لزوم الإغضاء عمَّا ينقل الوشاة، وصرف جميعها إلى الإحسان، وترك الخروج إلى ما لا يليق بأهل العقل مع ترك الإفكار فيما يزري بالعقل؛ لأن من وشَى بالشيء إلى إنسان بعينه يكون قصده إلى المخبر أكثر من قصده إلى المخبر به لمشافهته إياه بالشيء بالذي يشق عليه علمه وسماعه.

(١) رواه البخاري برقم (٦٠٥٦)، ومسلم برقم (١٠١) واللفظ له.

قال حماد بن سلمة[1]: «باع رجل من رجل غلامًا له فقال: أبرأ إليك من النميمة فاشتراه علىٰ ذلك فجاء إلىٰ مولاته فقال: إن زوجك ليس يحبك وهو يتسرىٰ[2] عليك ويتزوج أفتريدين أن يعطف عليك؟ قالت: نعم. قال: خذي موسىٰ فاحلقي به شعراتٍ من باطن لحيته وبخِّريه بها وجاء إلىٰ الرجل فقال: إن امرأتك تبغي[3] وتصادق وهي قاتلتك أفتريد أن يبين لك ذلك؟ قال: نعم. قال: تَنَاوَم لها، قال: فتناوم لها فجاءت بموسىٰ[4] لتحلق الشعر فأخذها فقتلها فأخذه أولياؤها فقتلوه».

هذا وأمثاله من ثمرة النميمة؛ لأنها تهتك الأستار وتفشي الأسرار وتورث الضغائن وترفع المودَّة وتجدِّد العداوة وتبدِّد الجماعة وتهيج الحقدَ وتزيد الصَّدَّ؛ فمن وُشيَ إليه عن أخٍ كان الواجب عليه معاتبته علىٰ الهفوة إن كانت وقبول العذر إذا اعتذر وترك الإكثار من العتب مع توطين النفس علىٰ الشكر عند الحفاظ وعلىٰ الصبر عند الضياع وعلىٰ المعاتبة عند الإساءة[5].

---

(١) هو حماد بن سلمة بن دينار الإمام الحافظ شيخ الإسلام أبو سلمة الدبعي مولاهم البصري البطائني النحوي المحدِّث قال الإمام أحمد: إذا رأيت الرجل ينالُ حماد بن سلمة فاتهمه علىٰ الإسلام مات سنة (١٦٧ هـ) «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٠٢).

(٢) أي: يشتري الجواري.

(٣) يقال: بغت المرأة تبغي بغاء – بالكسر – إذا زنت. «النهاية» (١/ ١٤٩).

(٤) الموسىٰ من آلة الحديد التي يحلق بها «لسان العرب» (٦/ ١١٠) مادة: «موس».

(٥) قال الحافظ في «فتح الباري» (١٠/ ٥٨١): قال الغزالي ما ملخصه: «ينبغي لمن حُمِلَت إليه نميمة أن لا يصدق من نمَّ له ولا يظن بمن نمَّ عنه ما نقل عنه ولا يبحث عن تحقيق ما ذكر له وأن ينهاه ويقبح له فعله وأن يبغضَه إن لم يتزجر وأن لا يرضىٰ لنفسه ما نهىٰ النمام عنه فينم هو علىٰ النمام فيصير نمامًا قال النووي: وهذا كله إذا لم يكن في النقل مصلحة شرعية وإلا فهي

وأنشدني علي بن محمد البسامي:

أُعَاتِبُ إخْوَانِي وأُبْقِي عَلَيْهِمُ ... ولَسْتُ لَهُمْ بَعْدَ العِتَابِ بِقَاطِعِ

وأغفرُ ذنْبَ المَرءِ إن زَلَّ زلَّةً ... إذَا مَا أتَاهَا كَارِهًا غير طائع

وأجْزَعُ مِنْ لومِ الحَلِيمِ وَعَذْلِهِ ... وَمَا أنَا مِنْ جَهْلِ الجَهُولِ بجازع

=

مستحبة أو واجبة كمن اطلع من شخص أنه يريد أن يؤذي شخصًا ظلمًا فحذره منه وكذا من أخبر الإمام أو من له ولاية بسيرة نائبه مثلًا فلا مانع من ذلك وقال الغزالي ما ملخصه: النميمة في الأصل: نقل القول إلىٰ المقول فيه ولا اختصاص لها بذلك، بل ضابطها كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو غيرهما وسواء كان المنقول قولًا أم فعلًا وسواء كان عيبًا أم لا حتىٰ لو رأىٰ شخصًا يخفي ماله فأفشىٰ كان نميمة. واختلف في الغيبة والنميمة هل هما متغايرتان أو متّحدتان والراجح التغاير وأن بينهما عمومًا وخصوصًا وجهيًّا؛ وذلك لأن النميمة نقل حال الشخص لغيره علىٰ جهة الإفساد بغير رضاه سواء كان بعلمه أم بغير علمه، والغيبة ذكره في غيبته بما لا يُرْضِيْهِ؛ فامتازت النميمة بقصد الإفساد ولا يشترط ذلك في الغيبة وامتازت الغيبة، لكونها في غيبة المقول فيه واشتركتا فيما عدا ذلك. ومن العلماء من يشترط في الغيبة أن يكون المقول فيه غائبًا والله أعلم.

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ قَبُولِ الاعتِذَارِ مِنَ المُعْتَذِرِ

عن جودان قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنِ اعْتَذَرَ إِلىٰ أَخِيهِ فَلَمْ يَقْبَلْ كانَ عليهِ مثلُ خَطِيئةِ صَاحِبِ مَكْسٍ**»(١)

الواجب علىٰ العاقل إذا اعتذر إليه أخوه لجُرْمٍ مضىٰ أو لتقصير سبق أنْ يقبل عذره ويجعله كمن لم يذنب؛ لأن من تُنُصِّلَ إليه فلم يقبل أخاف أن لا يَرِدَ الحوض علىٰ المصطفىٰ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢) ومن فَرَطَ منه تقصير في سبب من الأسباب يجب عليه الاعتذار من تقصيره لأخيه.

---

(١) الحديث رواه المصنف في «الأصل» من طريق ابن جريج عن العباس بن عبد الرحمن بن مينا عن جودان به.

وهو حديث ضعيف؛ لأن ابن جريج مدلس وقد عنعن، ولهذا قال المصنف في «الأصل» بعد ذكره هذا الحديث: أنا خائف أن يكون ابن جريج رحمة الله ورضوانه عليه دلس هذا الخبر فإن كان سمعه من العباس بن عبد الرحمن فهو حديث حسن غريب. اهـ.

وكذلك جودان هذا ليست له صحبة فقد قال البوصيري في «الزوائد»: رجاله ثقات إلا أنه مرسل، قال أبو حاتم: جودان هذا ليست له صحبة وهو مجهول. اهـ.

وعلىٰ هذا فهو حديث ضعيف لجهالة راويه وإرساله إياه وعنعنة ابن جريج.

(٢) يشير إلىٰ ما رواه الطبراني في «الأوسط» (١/ ٤٠٦)، برقم (١٠٣٣)، من حديث جابر مرفوعًا بلفظ: «**من اعتُذِرَ إليه فلم يقبل لم يرد عليَّ الحوض**» قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٨١). وفيه علي بن قتبة الرفاعي وهو ضعيف.

ولقد أنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

إِذَا اعْتَذَرَ الصَّدِيقُ إِلَيْكَ يَوْمًا ... مِنَ التَّقْصِيرِ عُذرَ أخٍ مُقِرٍّ

فَصُنْهُ عَنْ جَفَائِكَ واعْفُ عنه ... فَإِنَّ الصَّفْحَ شِيمَةُ كُلِّ حُرٍّ

لا يجب للمرء أن يعتذر بحيلة إلىٰ من لا يحب أن يجد له عذرًا ولا يجب أن يكثر من الاعتذار إلىٰ أخيه؛ فإن الإكثار من الاعتذار هو السبب المؤدي إلىٰ التهمة، وإني لأستحب الإقلال من الاعتذار علىٰ الأحوال كلِّها؛ لعلمي أن المعاذير يعتريها الكذب، وقلما رأيت أحدًا اعتذر إلا شابَ[1] اعتذاره بالكذب، ومن اعترف بالزلَّة استحق الصفح عنها؛ لأنَّ ذُلَّ الاعتذار عن الزلَّة يوجب تسكين الغضب عنها، والمعتذر إذا كان مُحِقًّا خضع في قوله وذلَّ في فعله.

الاعتذار يُذْهِبُ الهموم ويجلي الأحزان ويدفع الحقد ويذهب الصد، والإقلال منه تستغرق فيه الجنايات العظيمة والذنوب الكثيرة، والإكثار منه يؤدِّي إلىٰ الاتهام وسوء الرأي؛ فلو لم يكن في اعتذار المرء إلىٰ أخيه خصلةٌ تُحمَد إلا نفي العجب عن النفس في الحال لكان الواجب علىٰ العاقل أن لا يفارقه الاعتذار عن كلِّ زلة.

قدم عبد الرحمن بن عَنْبَسَة بن سعيد إلىٰ مَعْنِ بن زائدة باليمن وكانت بينهما عداوة فلما رآه قال له: يا عبد الرحمن بأي وجه أتيتني؟ ولأي خير أمَّلتني؟ قال: أصلح الله الأمير اسمع مِنِّي حتىٰ أنشدك بيتين قالهما نُصَيبٌ في

(١) أي: خلط.

عبد العزيز بن مروان. قال: وما هما؟ فأنشده:

لَــو كَــانَ فَــوقَ الأرضِ حــيٌّ فعَالــه كَفِعْلِــكَ أوْ لِلْفِعْــلِ مِنْــكَ مُقَــاربُ

لَقُلــتُ لَــهُ هَــذَا ولكِــنْ تَعَــذَّرَتْ سِــوَاكَ علــىٰ المُــسْتَعْتِبِينَ المــذَاهِبُ

فقال: أقم فإني لا أواخذك فيما مضىٰ ولا أُعَنِّفُكَ فيما بقىٰ.

❊

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ كِتمَانِ السِّرِّ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْتَعِينُوا عَلَىٰ الحَوَائِجِ بِكِتْمَانِ السِّرِّ فإنَّ لِكُلِّ نعمةٍ حاسدًا**»[1].

الواجب علىٰ من سلك سبيل ذوي الحجىٰ لزومُ ما انطوىٰ عليه الضمير بتركه إبداءَه المكنون فيه لا إلىٰ ثقة ولا إلىٰ غيره؛ فإن الدهر لا بد من أن يضرب ضرباته فيوقع ضدَّ الوصل بينهما بحالةٍ من الأحوال؛ فيخرجه وجود ضد ما انطوىٰ عليه قديمًا من وفائه إلىٰ صحة الخروج بالكلية إلىٰ جفائه بإبداء مكتوماته والكشف عن مخبّآته.

قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عجبت من الرجل يَفِرُّ من القدر وهو مواقعه، ومن الرجل يرىٰ القَذاة في عين أخيه ويدع الجذع في عينه، ومن الرجل يخرج الضّغن[2] من موضع ويدع الضّغن في نفسه، وما ندمت علىٰ أمرٍ قط فَلُمت نفسي علىٰ تندُّمي عليه، وما وضعت سِرِّي عند أحدٍ فلمته علىٰ أن يفشيه كيف ألومه وقد ضقتُ به؟

وأنشدني عبد العزيز بن سلمان:

إذَا ضَاقَ صَدْرُ المَرْءِ عَنْ بَعْضِ سِرِّه   فَأَلْقَاهُ في صَدْرِي فَصَدْرِي أَضْيَقُ

---

(١) الحديث حسن وانظر شواهده في «الصحيحة» برقم (١٤٥٣).

(٢) الضِّغْن والضغينة: الحقد. «مختار الصحاح»، مادة: «ضغن».

ومَـــنْ لامَنِـــي في أن أُضَـــيِّع سِـــرَّهُ وضـيَّعَهُ قبلـي فَـذُو الـسِّرِّ أخْـرَقُ[١]

من حصَّن بالكتمان سره تم له تدبيره وكان له الظفر بما يريد في السلامة من العيب والضرر، وإن أخطأه التمكُّن والظفر والحازم يجعل سره في وعاءٍ ويكتمه عن كل مستودعٍ فإن اضطره الأمر وغلبه أودعه العاقل الناصح له.

لأن السِّرَّ أمانة وإفشاؤه خيانة والقلب له وعاؤه؛ فمن الأوعية ما يضيق بما يودع، ومنها ما يتسع لما اسْتُودع.

وأنشدني الكريزي:

اجْعَــلْ لِــسِرِّكَ مِــنْ فُــؤادِكَ مَنْــزِلًا لا يَــسْتَطِيعُ لَــهُ اللِّــسانُ دُخُــولا

إنَّ اللِّــسَانَ إذَا اسْــتَطَاعَ إلــىٰ الَّــذِي كَـتَمَ الفـؤادُ مِـنَ الـشُّئونِ وصُـولا

ألْفَيْــتَ سِــرَّكَ في الــصَّدِيقِ وغَيْــرِهِ مِــنْ ذِي العَــدَاوَةِ فَاشِــيًا مَبْــذولا

الإفراط في الاسترسال بالأسرار عجز، وما كتمه المرء عن عدوه فلا يجب أن يظهره لصديقه، وكفىٰ لذوي الألباب عِبَرًا ما جرَّبوا، ومن اسْتُودِع حديثًا فَلْيَسْتُر ولا يكن مهتاكًا ولا مشياعًا؛ لأن السِّرَّ إنما سُمِّي سرًّا لأنه لا يُفشىٰ.

قيل للأحنف بن قيس[٢]: ما أحلمك! قال: ما فعلته إلا تعليمًا من

---

(١) أي: أحمق. انظر: «النهاية» (١/ ٤٨٥).

(٢) هو الأحنف بن قيس بن معاوية الأمير الكبير العالم النبيل أبو بحر التميمي أحدُ من يُضْرَبُ بحلمه وسُؤْددِهِ المَثَل اسمه ضحَّاك. وقيل: صخر وشُهِرَ بالأحنف لِحَنَفِ رجليه وهو العَوَج والميلُ كان سيِّد تميم أسلم في حياة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووفد علىٰ عمر مات سنة (٦٧ هـ) وقيل: سنة (٧١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٨٦).

عمومتي، ولقد قلت ذات يوم لأحدهم: أي عَمِّ ماذا لقيت من ضرسٍ البارحة؟ فقال: إيهًا الآن قد ذهبت عينُ عَمِّك منذ سنةٍ ما شعر بها أحدٌ.

***

ذِكْرُ المَشْوَرَةِ فِي أوْقاتِ الضَّرُورات

عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المُسْتَشَارُ مُؤْتَمنٌ**»(١).

لا بد لصاحب السر الكاتم له على ما وصفنا أن يضيق صدره فيشتهي إذاعَةَ ما به فإذا كان كذلك اختار إفشاءه بالاستشارة مع الدَّيِّن العاقل الودود، ولا يستشير إلا من وجد فيه الخصال الثلاث التي ذكرناها(٢)؛ فإنه إن لم يكن ديِّنًا خانه، وإن لم يكن عاقلًا أخطأ موضع الإصابة، وإن لم يكن وادًّا ربما لم ينصحه.

ولقد أنشدني ابن زنجيٍّ:

سَائِلْ ذَوِي العِلْمِ عَمَّا أنْتَ جَاهِلُهُ ... إنَّ السُّؤالَ شِفَاءُ العيِّ والهَذَرِ(٣)

لا تَسْتَشِيرَنَّ مَنْ تَخْشَىٰ غَوَائِلَهُ ... والأحمقَ الرأْيِ الغَابي عَنِ الخَبَرِ

واعْلَمْ بأنكَ إنْ شَاوَرْتَ بَعْضَهُمُ ... شَاوَرْتَهُ مُشْرِفًا مِنْهُ علىٰ خَطَرِ

---

(١) رواه المصنف في «الأصل» من طريق شريك عن الأعمش عن أبي عمرو الشيباني عن أبي مسعود به وسنده ضعيف لأجل شريك وهو ابن عبد الله القاضي لكنَّه حسن بشواهده من حديث أبي هريرة عند أبي داود برقم (٥١٢٨) وابن ماجه برقم (٣٧٤٥) ومن حديث أم سلمة عند الترمذي برقم (٢٨٢٣).

(٢) وهي استشارة الدَّيِّن العاقل الودود.

(٣) الهذَر: هو الهذيان. «مختار الصحاح»، مادة: «هذر».

إذَا أشَـــرْتَ بـــأمرٍ أوْ هَمَمْـــتَ بِـــهِ فـالرَّأي طُـولُ اتِّهَـامِ النَّـاسِ والحَـذرِ
انظــر بِعَيْنِــك فِيمَــا أنْــتَ شَــاهِدُهُ واجْعَــلْ فُــؤادَكَ فِيمَــا غَــابَ للنَّظَــرِ

المستشار مؤتمن وليس بضامن، والمستشير متحصّن من السقط متخيرٌ للرأي، والواجب علىٰ العاقل السالك سبيل ذوي الحجىٰ: أن يعلم أن المشاورة تفشي الأسرار فلا يستشير إلا اللَّبيب الناصح الودود الفاضل في دينه، وإرشاد المُشير المستشير قضاء حق النعمة في الرأي، والمشورة لا تخلو من البركة إذا كانت مع مثل من وصفنا نعته.

الواجب علىٰ العاقل إذا استُشير قومٌ هو فيهم أن يكونَ آخرَ من يشير؛ لأنه أمكن من الفكر وأبعد من الزَّلل وأقرب من الحزم وأسلم من السقط، ومن استشار فلينفذ الحزم بأن لا يستشير عاجزًا كما أن الحازم لا يستعين كسلان وفي الاستشارة عين الهداية، ومن استشار لم يعدم رشدًا، ومن ترك المشاورة لم يعدم غَيًّا ولا يندم من شاور مرشدًا.

وقد أنشدني الواسطي:

الهَــمُّ مَــا لَــمْ تُمْــضِهِ لِــسَبِيلِهِ سُــقْمُ القُلُــوبِ وآفَــةُ الأبْــدَانِ
ومُعَــوَّلُ الرجــلِ الموفَّــقِ رَايــهُ عِنْــدَ اعْتِــرَاضِ طَــوَارِقِ الأحْــزَانِ
وإذَا الحَــوَادِثُ سَــدَّدَتْ أسْــبَابَهُ كــانَ التَّبَــصُّرُ أنْجَــدَ الأعْــوانِ
وإذا أضَــلَّ سَــبِيلَه تَــدْبِيرُه طَلَــبَ الهُــدَىٰ بِتَــشَاوِرِ الإخــوان

إن من شيم العاقل عند النائبة تنوبه أن يشاور عاقلًا ناصحًا ذا رأي ثم يطيعه، وليعترف للحق عند المشورة، ولا يتمادىٰ في الباطل بل يقبل الحق ممن

جاء به ولا يحقر الرأي الجليل إذا أتاه به الرجل الحقير؛ لأنَّ اللؤلؤة الخطيرة لا يشينها قلة خطر[١] غائصها الذي استخرجها ثم ليستخر الله ولْيَمْضِ فيما أشار عليه.

❋

(١) الخطر: هو ارتفاع القدر والمال والشرف والمنزلة. «لسان العرب» (٢/ ٢٧٦)، مادة: «خطر».

ذِكْرُ الحَثِّ على لُزُومِ النَّصِيحَةِ للمُسْلِمين كَافَّةً

عن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**». قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: «**للهِ ولِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»(١).

الواجب على العاقل لزوم النصيحة للمسلمين كافة وترك الخيانة لهم بالإضمار والقول والفعل؛ معًا إذ المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يشترط على من بايعه من أصحابه النصح لكلِّ مسلم مع إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة(٢).

قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لا تعمل بالخديعة فإنها خُلُق اللِّئام، وامحض أخاك النصيحة حسنةً كانت أو قبيحة وزُلْ معه حيث زال.

وأنشدني الكريزي:

قُلْ للنَّصِيحِ الذي أهْدَىٰ نَصِيحَتَهُ ... سِرًّا إلَيْنَا وسَامَتْهُ التَّكَالِيفُ

النُّصْحُ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَتَعرِفَهُ ... والنُّصْحُ مُسْتَوْحَشٌ مِنْهُ ومألُوفُ

حَتَّىٰ إذَا صَرَّحَتْ عنَّا عواقِبُهُ ... كَانَتْ لنا عِظَةٌ مِنْهُ وَتَعْنِيفُ

لَوْ كَانَ للنُّصْحِ حَدٌّ يُسْتَبَانُ بِهِ ... مَا نَالَنَا حَسْرَةٌ مِنْهُ وَتَلْهِيفُ

---

(١) الحديث رواه مسلم برقم (٥٥).

(٢) كما في «صحيح البخاري» برقم (٥٧)، ومسلم برقم (٥٦)، من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بايعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكلِ مسلم.

لَكِــنْ لَــهُ سُــبُلٌ شَــتَّىٰ مُخَالِفَــةٌ بَعْــضٌ لِـبَعْضٍ فَمَجْهُــولٌ ومَعْــرُوفُ

والنَّــاسُ غــاوٍ وَذُو رُشْــدٍ ومُخْــتَلِطٌ والنُّصْحُ مُمْـضَىٰ وَمَـرْدُودٌ ومَوْقُـوفُ

النصيحة تجب علىٰ الناس كافةً علىٰ ما ذكرنا قبل، ولكنْ إبداؤها لا يجب إلا سرًّا؛ لأن من وَعَظ أخاه علانية فقد شانه ومن وعظه سرًّا فقد زانه، فإبلاغ المجهود للمسلم فيما يزين أخاه أحرىٰ من القصد فيما يشينه.

قال سفيان(١): قلت لمِسْعَر(٢) «أتحبُّ أن يخبرك رجل بعيوبك؟ قال: أما أن يجيءَ إنسان فيوبخني بها فلا، وأما أن يجيء ناصحٌ فَنَعَمْ». قال ابن المبارك(٣): «كان الرجل إذا رأىٰ من أخيه ما يكره أمره في سِتر ونهاه في ستر فيؤجر في ستره ويؤجر في نهيه، فأما اليوم فإذا رأىٰ أحد من أحد ما يكره استغضب أخاه وهتك ستره».

ولقد أنشدني ابن زنجي البغدادي:

فَكَـمْ مِـنْ عَـدوٍّ مُعْلِـنٍ لَـكَ نُـصْحَهُ عَلانِيَــةً والغِــشّ تَحْــتَ الأضــالِعِ

وكَـمْ مِـنْ صَـدِيقٍ مُرْشِـدٍ قَـدْ عَـصَيْتَهُ فكُنْـتَ لَـهُ فِـي الرُّشْـدِ غَيْـرَ مطـاوِعِ

ومَــا الأَمْــرُ إلا بالعَوَاقِــبِ إنَّهَــا سَــيَبْدو عَلَيْهَــا كــلُّ سِــرٍّ وَذَائِــعِ

---

(١) هو سفيان بن عيينة تقدمت ترجمته.

(٢) هو مسعر بن كِدَام بن ظُهَيْر بن عُبَيْدة بن الحارث الإمام الثبت شيخ العراق أبو سلمة الهلالي الكوفي الأحول الحافظ مات سنة (١٥٥ هـ) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٦٣).

(٣) هو عبد الله بن المبارك بن واضح الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام فخر المجاهدين قدوة الزاهدين أبو عبد الرحمن الحنظلي مولاهم المروزي التركي الأب الخوارزمي الأُم السفار صاحب التصانيف النافعة والرحلات الشاسعة مات سنة (١٨١ هـ)، «تذكرة الحفاظ» (١/ ٢٧٤).

ذِكْرُ الزَّجْرِ عَن تهَاجُرِ المُسْلِمينَ كَافَّةً

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَبَاغَضُوا وَلَا تَنَافَسُوا وَلَا تَحَاسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَكُونُوا عبادَ اللهِ إخوانًا لا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخاهُ فَوْقَ ثَلاثٍ**»(١).

لا يحلُّ التباغضُ ولا التنافُسُ ولا التحاسد ولا التدابر بين المسلمين، والواجب عليهم أن يكونوا إخوانًا كما أمرهم الله ورسوله، فإذا تألَّم واحد منهم يألم الآخر بألَمِهِ، وإذا فَرِحَ فَرِحَ الآخر بفرحه ينفي الغشَّ والدَّغل مع استسلام الأنفس لله عَزَّ وَجَلَّ مع الرضا بما يوجب القضاء في الأحكام كلِّها، ولا يجب الهجران بين المسلمين عند وجود زَلَّةٍ من أحدهما، بل يجب عليهما صرفها إلىٰ الإحسان والعطف عليها بالإشفاق وترك الهجران.

وأنشدني عمرو بن محمد بن عبد الله النسوي لثعلب:

وَمَا صُدُودُ ذَوَات الدَّلِّ يُرْمِضُني … لَكِنَّمَا المَوْتُ عِنْدِي صدُّ إخْوَانِي

إنِّي لأصْبرُ مِنْ عَوْدٍ(٢) بهِ جُلَبٌ(٣) … عِنْدَ الملمَّاتِ إلَّا عِنْدَ هِجْرَانِ

---

(١) الحديث رواه البخاري برقم (٦٠٦٥)، ومسلم برقم (٢٥٥٩).

(٢) العَوْدِ: هو الجمل الكبير المُسِنُّ. «النهاية» (٢/ ٢٦٩).

(٣) الجُلَبُ: هي القروح.

إذَا رَأيْـتُ ازوِرَارًا[١] مـن أخـي ثقـةٍ ضَـاقَتْ عَلـيَّ بِرَحـبِ الأرْضِ أوْطَـاني

السبب المؤدي إلىٰ الهجران بين المسلمين ثلاثة أشياء:

إما وجود الزَّلة من أخيه - ولا محالة يزلّ - فلا يغضي عنها ولا يطلب لها ضدها.

وإبلاغ واشٍ يقدح فيه ومشي عاذلٍ بثلب له فيقبله ولا يطلب لتكذيبه سببًا ولا لأخيه عذرًا.

وورود مللٍ يدخل علىٰ أحدهما فإن الملالة تورث القطع ولا يكون لملولٍ صديق.

كان لابن شبرمة أخ فجفاه فكتب إليه:

كِلَانـا غَنـيٌّ عَـنْ أخِيـهِ حَيَاتَـهُ وَنَحْـنُ إذَا مِتْنَـا أشَـدُّ تَغَانِيـا

لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام فمن فعل ذلك كان مرتكبًا لنهي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وخيرهما الذي يبدأ بالسلام، والسابق بالسلام يكون السابق إلىٰ الجنة ومن هجر أخاه سنةً كان كَسَفْكِ دمه[٢] ومن مات وهو مهاجرٌ أخاه دخل النار إن لم يتفضل الله عليه بعفو منه ورحمة، وغاية ما أُبيحَ

(١) ازورارًا؛ أي: إعراضًا. انظر: «النهاية» (١/ ٧٣٥).

(٢) يشير إلىٰ حديث صحيح عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «من هجر أخاه سنةً فَهُوَ كَسَفْكِ دمه» رواه أحمد (٤/ ٢٢٠)، وغيره من حديث أبي خراش السلمي، وصححه شيخنا في «صحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (٢/ ٢٧٠)، برقم (١٢٢٠).

من الهجران بين المسلمين ثلاثة أيام[١].

❊

(١) هذا إذا كان التهاجر من أجل أُمورٍ دنيوية وأغراضٍ شخصيةٍ. أما هجران أهل البدع فإنه على الدوام حتى يتوبوا، لذا قال النووي في شرح حديث رقم (٥٠٢٦) من «صحيح مسلم» (١٣/ ١٠٧)، فيه هجران أهل البدع والفسوق ومنابذي السنة مع العلم وأنه يجوز هجرانه دائمًا والنهي عن الهجران فوق ثلاثة أيام إنما هو فيمن هَجَرَ لحظِّ نفْسِهِ ومعايش الدنيا، وأما أهل البدع ونحوهم فهجرانهم دائمًا وهذا الحديث مما يؤيِّده مع نظائر له كحديث كعب بن مالك وغيره. اهـ.

قلت: والهجر له ضوابط، وللفائدة انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٨/ ٢١٣ و ٢٠٦)، و(٢٤/ ٢٨٦) لابن تيمية و«زاد المعاد» (٣/ ٢٠) لابن القيم.

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ الحِلْمِ عِندَ الأذى

عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا حَلِيمَ إلَّا ذو عَثْرَةٍ، ولا حَكيمَ إلَّا ذو تَجْرِبَة**»[(١)].

هذا الخبر في الضرب الذي ذكرت في كتاب فصول السنن بأن العرب تضيف الاسم إلىٰ الشيء للقرب من التمام وتنفي الاسم عن الشيء للنقص من الكمال فلما كان الغالب علىٰ المرء أن لا يكون حليمًا حتىٰ يكون ذا عثرة نفىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسم الحليم عمن لم يكن بذي عثرة لنقصه عن الكمال.

فالحليم عظيم الشأن رفيع المكان محمود الأمر مرضيُّ الفعل.

والحِلْمُ: اسم يقع علىٰ زمِّ النفس عن الخروج عن الورود عليها ضد ما تحب إلىٰ ما نُهي عنه.

فالحِلْمُ يشتمل علىٰ المعرفة والصبر والأناة والتثبُّت ولم يقرن شيء إلىٰ

---

(١) الحديث رواه المصنف في «الأصل» من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعًا به.
ودراج هو دراج بن سمعان أبو السمح ضعيف أما قول الحافظ في «التقريب»: صدوق في حديثه عن أبي الهيثم ضعف فهو تساهل، والصحيح أنه ضعيف وتزداد روايته ضعفًا إذا كانت عن أبي الهيثم، وهي هنا كذلك، فالحديث ضعيف، أما أبو الهيثم فهو سليمان بن عمرو العتواري ثقة، وأما حُكْم ابْنِ كثير في «تفسيره» (٤/ ٦٥٦) من تفسير سورة المعارج عليه بأنه ضعيف فهذا وهم منه، رحمة الله علىٰ الجميع.

شيء أحسن من عفو إلىٰ مقدرة، والحلم أجمل ما يكون من المقتدر علىٰ الانتقام.

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الحِلمَ زَيْنٌ مسوِّدٌ لِصَاحِبِهِ والجَهْلَ للمرءِ شَائِنٌ

فكُنْ دَافِنًا للشرِّ بالخَيْرِ تَسْتَرِحْ مِن الهَمِّ إنَّ الخَيْرَ للشرِّ دافنُ

إن من نفاسَةِ اسم «الحِلْم» وارتفاع قدره أن الله جلَّ وعلا تسمَّىٰ به ثم لم يسمِّ بالحِلم في كتابه أحدًا إلا إبراهيم خليلَه وإسحاق ذبيحه[1] حيث قال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٤] وقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات:١٠١].

ولو لم يكن في الحِلْم خصلة تُحمد إلا ترك اكتساب المعاصي والدخول في المواضع الدنسة لكان الواجب علىٰ العاقل أن لا يفارق الحِلْم ما وجد إلىٰ استعماله سبيلًا والحلم سجيَّة أو تجربة أو هُمَا.

قال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنما العلم بالتعلُّم وإنما الحِلم بالتَّحَلُّم، ومن يَتوَخَّ الخير يُعْطَهُ ومَن يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوْقَهْ».

وأنشدني الكريزي:

إذا أنا كَافَيْتُ الجَهُولَ بِفِعْلِهِ فَهَلْ أَنَا إلَّا مثله إذْ أُحَاوِرُه

ولَكِنْ إذَا مَا طَاشَ بالجَهْلِ طائِشٌ عَلَيَّ فإني بالتَّحَلُّمِ قَاهِرُه

(١) وقد رَدَّ هذا جماعة من أهل التحقيق ورأوا أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق.
انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤٥٣)، و«قصص الأنبياء» ص (٢٠٥) كلاهما لابن كثير و«أضواء البيان» (٦/ ٣١٧) للشنقيطي، و«مجموع الرسائل» ص (٦٦ - ٦٨) لشيخنا النجمي رَحِمَهُ اللَّهُ، بتعليقي.

العاقل يلزم الحلْم عن الناس كافةً من صَعُب ذلك فليتحالم؛ لأنه يرتقي به إلىٰ درجة الحِلم.

وأول الحِلْم: المعرفة ثم التثبُّت ثم العزم ثم التصبُّر ثم الصبر ثم الرضا ثم الصمت والإغضاء، وما الفضل إلا للمحسن إلىٰ المسيء، فأما من أحسن إلىٰ المحسن وحَلُمَ عمَّن لم يؤذه فليس ذلك بحلمٍ ولا إحسانٍ.

الحلم علىٰ ضربين:

أحدهما: ما يرد علىٰ النفس من قضاء الله من المصائب التي امتحن الله بها عباده فيصبر العاقل تحت ورودها ويحلم عن الخروج إلىٰ ما لا يليق بأهل العقل.

والآخر: ما يرد علىٰ النفس بضدٍّ ما تشتهيه من المخلوقين فَمَنْ تعوَّد الحِلْم فليس بمحتاج إلىٰ التصبُّرِ لاستواء العدم والوجود عنده.

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ الرِّفْقِ في أمورٍ وكَرَاهِيَةِ العَجَلَةِ فيهَا

عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فقد أُعطي حَظَّهُ مِنَ الخَيْرِ، وَمَنْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الخَيْرِ**»(١).

الواجب على العاقل لزوم الرفق في الأُمور كلِّها، وترك العجلة والخفة فيها إذ الله تعالىٰ يحب الرفق في الأمور كلها، ومن مُنِع الرِّفْق مُنِعَ الخير كما أن من أُعْطِي الرفْقَ أُعطي الخير، ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته في سلوك قصده في شيءٍ من الأشياء علىٰ حسب الذي يحبُّ إلا بمقارنة الرِّفق ومقارنة العجلة.

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

الرِّفْــقُ أيْمَــنُ شَــيءٍ أنْــتَ تتبعُــهُ ... والخَـرْقُ(٢) أَشْـأَمُ شَـيءٍ يقـدم الـرجلا

وذَو التثبُّــتِ مِــن حَمْــدٍ إلــىٰ ظَفَــرٍ ... مَنْ يركَبُ الرِّفْقَ لا يَسْتَحْقِبُ(٣) الزللا

---

(١) رواه المصنف في «الأصل» من طريق عمرو بن دينار عن ابن أبي مليكة عن يعلىٰ بن مملك، عن أُم الدرداء عن أبي الدرداء مرفوعًا به، وابن مملك هذا قال الذهبي: ما حدث عنه سوىٰ ابن أبي مليكة فعلىٰ هذا يكون مجهولًا بيد أن بعض فقراته صحيحة من طرق أخرىٰ، وبعضها لها شواهد وانظر لذلك «الصحيحة» برقم (٥١٩)، و«مسند أحمد» برقم (٢٧٥٥٣)، المجلد (٤٥/ ٥٣٥ – ٥٣٦) و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٤٦٤) برقم (١٠٥٠) لأن ذكر ذلك سيطول جدًّا.

(٢) الخرق: هو الحمق كما تقدم.

(٣) أي: يجمع. وانظر: «النهاية» (١/ ٤٠٢ – ٤٠٣).

العاقل يلزم الرِّفق في الأوقات والاعتدال في الحالات؛ لأن الزيادة على المقدار في المبتغىٰ عيب كما أن النقصان فيما يجب من المطلب عجز، وما لم يصلحه الرفق لم يصلحه العنف، ولا دليل أمهر من رفق كما لا ظهير[1] أوثق من العقل، ومن الرفق يكون الاحتراز وفي الاحتراز ترجىٰ السلامة، وفي ترك الرفق يكون الخُرْق وفي لزوم الخرق تخاف الهَلَكَة، ولقد أنشدني الأبرش:

عَلَيْكَ بِوَجْهِ القَصْدِ فاسْلُكْ سَبِيلَهُ ... ففي الجَوْرِ إهلاكٌ وَفي القَصْدِ مَسْلَكُ

إذَا أنْتَ لَمْ تَعْرِفْ لِنَفْسِكَ قَدْرَهَا ... تُحَمِّلُها مَا لا تَطِيق فَتَهْلِكُ

الرفق لا يكاد يُسْبَق كما أن العَجِل لا يكاد يلحق، وكما أن من سكت لا يكاد يندم، كذلك من نطق لا يكاد يسلم، والعَجِل يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يُسأل، ويَحمد قبل أن يجرِّب، ويذم بعدما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يَعزِم، والعَجِل تصحبه الندامة وتعتزله السلامة. وكانت العرب تكنِّي العَجَلة أُم الندامات.

ولقد أنشدني بعض أهل العلم:

العَجْزُ ضُرٌّ وَمَا بِالحَزْمِ[2] مِنْ ضَرَرٍ ... وأحْزَمُ الحَزْمِ[3] سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

لا تترك الحزم في أمرٍ تحاذره ... فإن أمنت فما بالحزم من باس

العجلة تكون من الحِدَّةِ، وصاحب العجلة إن أصاب فرصته لم يكن

---

(١) أي: معين كما تقدم.

(٢) الحزم هنا الضبط، يقال: ضبط الرجل أمره؛ أي: حزمه ومن قولهم: حَزَمتُ الشيء، أي: شددته، وانظر: «النهاية» (١/ ٣٧١).

(٣) الحزم: هنا سوء الظنِّ. «النهاية» (١/ ٣٧١).

محمودًا وإن أخطأها كان مذمومًا، والعجل لا يسير إلا مناكبًا[١] للقصد منحرفًا عن الجادة يلتمس ما هو أنكد وأوعر وأخفىٰ مسارًا يحكم حكم الوَرهاء[٢] ويناسب أخلاق النساء.

العجلة موكَّلٌ بها الندم وما عَجل أحد إلا اكتسب ندامةً واستفاد مذمَّةً؛ لأنَّ الزلَلَ مع العجل، والإقدام علىٰ العمل بعد التأني فيه أحزم من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه، ولا يكون العجول محمودًا أبدًا، والعاقل يعلم أن العجز في الأُمور يقوم في النقص مقام الإفراط في السعي فيتجنبهمَا معًا ويجعل لنفسه مسلكًا بينهما.

❋

(١) الناكب: هو المائل، وانظر: «مختار الصحاح» مادة: «نَكَبَ».

(٢) الوره: الحُمْق في كلِّ عملٍ والأَوْرَهُ الذي تَعْرِفُ وتُنكر وفيه حُمْقٌ ولكلامه مخارج وقيل: هو الذي لا يتمالك حُمْقًا، وامرأة ورْهَاءُ خرقاءُ بالعمل وامرأة ورْهَاءُ اليدين خرقاءُ قال:

تَــرَنُّمَ وَرْهَــاءِ اليَــدَيْنِ تعـامَلَـت ... علىٰ البَعْــل يومًــا وهي مقــاءُ ناشــزُ

والمقاء: الكثيرة الماء. «لسان العرب» (٦/ ٤٣٢)؛ مادة: «وره».

ذِكْرُ الحثِّ على تعلُّمِ الأدبِ وَلُزُومِ الفَصَاحَةِ

عن ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**إنَّ منَ البَيانِ لَسِحْرًا**»[١].

قد شبَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في هذا الخبر البيان بالسحر إذا الساحر يستميل قلب الناظر إليه بسحره وشعْوذته والفضيح الذَّرب[٢] اللسان يستميل قلوب الناس إليه بحسن فصاحته ونظم كلامه فالأنفس تكون إليه تائقة والأعين إليه رامقة[٣].

وأنشدني الكريزي:

أكْـرِمْ بِـذِي أدَبٍ أكْـرِمْ بـذِي حَـسَبٍ ... فإنَّمَـا العــزمُ في الأحْـسَابِ والأدبِ

والنَّــاسُ صِــنْفَانِ ذو عَقْــلٍ وذُو أدَبٍ ... كمَعْـدِنِ الفِـضَةِ البَيْـضَاءِ والـذَّهَبِ

وسـائر النـاسِ مِـنْ بَـيْنِ الـوَرَىٰ هَمَـجٌ[٤] ... كَـانُوا مَـوَالِي أوْ كَـانُوا مـن العَـرَبِ

---

(١) الحديث رواه البخاري برقم (٥٧٦٧) من حديث ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا ورواه مسلم برقم (٨٦٩)، من حديث عمار رَضِيَاللَّهُعَنْهُ مرفوعًا بلفظ «**إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه فأطيلوا الصلاة واقصروا الخطبة وإنَّ من البيان سحرًا**».

(٢) أي: الفصيح، يقال: ذَرِبَ الرجل إذا فَصُحَ لسانه بعد حصره. «لسان العرب»، مادة: «ذرب» وكذلك يقال لمن كان لسانه حادًا لا يبالي ما قال «النهاية» (١/ ٦٠١).

(٣) أي: ناظرة، يقال رمقه، أي: نظر إليه «مختار الصحاح»، مادة: «رمق».

(٤) الهمج: رذالة الناس، ويقال: كذلك للرعاع الحمقى. «النهاية» (٢/ ٩١١)، و«مختار الصحاح» مادة: «همج».

الفصاحة أحسن لباس يلبسه الرجل وأحسن إزار يتَّزر به العاقل، والأدب صاحبٌ في الغربة، ومؤنس في القِلَّة، ورفعة في المجالس، وزين في المحافل، وزيادة في العقل، ودليل علىٰ المروءة، ومن استفاد الأدب في حداثته انتفع به في كبره لأن من غرس فسيلًا[١] يوشك أن يأكل رُطَبَها وما يستوي عند أُولي النُّهَىٰ ولا يكون سيان عند ذوي الحِجىٰ رجلان أحدهما يلحن والآخر لا يلحن.

وأنشدني محمد بن عبد الله البغدادي:

أيُّها الطَّالِبُ فَخْرًا بالنَّسَبْ ... إنَّمَا النَّاسُ لأُمٍّ وَلأَبْ

هَلْ تَرَاهُمْ خُلِقُوا مِنْ فِضَّةٍ ... أو حَدِيدٍ أوْ نُحَاسٍ أوْ ذَهَبْ؟

أوْ تَرَىٰ فَضْلَهُمُ في خَلْقِهِمْ ... هَلْ سِوَىٰ لَحْمٍ وَعَظْمٍ وَعَصبْ؟

إنَّما الفَضْلُ بِحِلْمٍ رَاجِحٍ ... وبأَخْلاقٍ كِرامٍ وأدبْ

ذَاكَ مَنْ فَاخَرَ في النَّاسِ بِهِ ... فَاقَ مَنْ فَاخَرَ مِنْهُمْ وَغَلَبْ

أفضل ما ورَّث أبٌ ابنًا ثناءٌ حسن وأدب نافع، والخرس عندي خير من البيان بالكذب كما أن الحَصُور[٢] خير من العاهر فيجب علىٰ العاقل أن يذكي قلبه بالأدب كما تُذَكَّىٰ النار بالحطب؛ لأن من لم يذكِ قلبَه ران حتىٰ يسْوَدَّ، ومن تعلَّم الأدب فلا يتخذه للمماراة عُدَّةً ولا للمباراة ملجأً، ولكن يقصد قصد الانتفاع بنفسه وليستعين به علىٰ ما يقر به إلىٰ بارئه.

الكلام مثل اللؤلؤ الأزهر والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر إلا أن

(١) أي: صغار النخل.

(٢) الحصور: الذي لا يأتي النساء. «لسان العرب» مادة: «حصر».

بعضه أفضل من بعض، ومنه ما يكون مثل الخزف والحجر والتراب والمَدَر، وأحوج الناس إلىٰ لزوم الأدب وتعلم الفصاحة أهل العلم لكثرة قراءتهم الأحاديث وخوضهم في أنواع العلوم.

❊

ذِكْرُ إبَاحَةِ جَمْعِ المَالِ للقَائِمِ بِحُقُوقِهِ

عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: «**يا عَمْرَو نِعِمَّا المالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ**»(١).

هذا الخبر يصرح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإباحة جمع المال من حيث يجب ويحل للقائم فيه بحقوقه؛ لأن في تقرينه الصلاح بالمال والرجل معًا بيانًا واضحًا لأنه إنما أباح في جمع المال الذي لا يكون بِمُحَرَّمٍ علىٰ جامعه ثم يكون الجامع له قائمًا بحقوق الله فيه.

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي:

إذَا كَانَ مَا جَمَّعْتَ لَيْسَ بِنَافِعٍ ... فَأَنْتَ وأقْصَىٰ النَّاسِ فِيهِ سَوَاءُ

علىٰ أنَّ هَذَا خارجٌ مِنْ آثامِهِ ... وأنْتَ الذي تُجْزَىٰ بِهِ وَتُسَاءُ

إن من أحسن ما ينتفع المرء به في عمره وبعد الممات تقوىٰ الله والعمل الصالح.

فالواجب علىٰ العاقل أن يعمل في شبابه فيما يقيم به أَوَدَه(٢) كالشيء الذي لا يفارقه أبدًا وفيما يصلح به دينه كالشيء الذي لا يجده غدًا، وليكن

---

(١) حديث صحيح وهو عند أحمد (٤/ ١٩٧)، والحاكم (٢/ ٢٣٦)، والبغوي برقم (٢٤٩٥)، وغيرهم وصححه الألباني في «غاية المرام» (ص ٢٦١).

(٢) أي: اعوجاجه انظر: «مختار الصحاح» مادة: «أوَد».

تعاهده لماله ما يصلح به معاشَه ويصون به نفسه وفي دينه ما يقدِّم به لآخرته ويرضي به خالقه، والفاقة خير من الغنىٰ بالحرام، والغني الذي لا مروءة له أهون من الكلب وإن هو طُوِّق وخُلْخِلَ.

إن أسعد الناس من كان في غناه عفيفًا وفي مَسْكَنته قنعًا؛ لأن من نزل به الفقر لم يجد بُدًّا من ترك الحياء، والفقر يذهب العقل والمروءة ويذهب العلم والأدب وكاد الفقر أن يكون كفرًا[1] ومن عُرِفَ بالفقر صار معدنًا للتهمة ومجمعًا للبلايا اللهمَّ إلا أن يرزق المرء قلبًا نقيًّا قنعًا يرىٰ الثواب المدَّخر من الضجر الشديد فحينئذٍ لا يبالي بالعالم بأسرهم والدنيا وما فيها، والفقر داعية إلىٰ المهانة كما أن الغنىٰ داعية إلىٰ المهابة ولقد أحسن الذي يقول:

يغطِّي عُيُوبَ المرءِ كَثْرَةُ مَالِهِ وصُدِّقَ فيمَا قَالَ وهو كَذُوبُ

ويُزْرِي بِعَقْلِ المَرْءِ قلَّةُ مَالِهِ يُحَمِّقُه الأقْوَامُ وهو لَبِيبُ

ليس خلة هي للغنيِّ مدح إلا وهي للفقير عيب فإن كان الفقير حليمًا قيل: بليد، وإن كان عاقلًا قيل: مكّار، وإن كان بليغًا قيل: مهذار، وإن كان ذكيًا قيل: حديد، وإن كان صموتًا قيل: عييٌّ، وإن كان متأنيًا قيل: جبان، وإن كان حازمًا قيل: جريء، وإن كان جوادًا قيل: مُسْرِف، وإن كان مُقدِّرًا قيل: ممسك.

وشرُّ المال ما اكتُسِبَ من حيث لا يحلُّ وأُنفِقَ فيما لا يَجْمُلُ ووجوده وعدمه ليسا بتجلُّد ولا بكثرة حيلة ولكنه أقسام ومواهب من الخلاق العليم.

---

(١) هناك حديث بلفظ: «كاد الفقر أن يكون كفرًا». لكنه ضعيف انظر لذلك تخريج كتاب «مشكلة الفقر» ص (٩) للألباني.

ولقد أنشدني الأبرش:

يَـشْقَىٰ رِجَـالٌ ويَـشْقَىٰ آخَـرُونَ بِهِـمْ ... ويُـسْعِدُ اللهُ أقوَامًـا بـأقْوَام

ولَـيْسَ رزقُ الفَتَـىٰ مِـنْ حُـسْنِ حِيلَتِـهِ ... لَكِـنْ جُـدودٌ بـأرْزَاقٍ وأقـسَامِ

كالـصيد يُحْرَمُـهُ الرَّامِي المُجيـدُ وقَـدْ ... يَرْمِـي فَيُرْزَقـهُ مَـنْ لَـيْسَ بـالرَّامِي

إنّ شرَّ المال ما لا يُخرَجُ منه حقوقه، وإنَّ شرًّا منه ما أُخذ من غير حِلِّه ومنع من حقه وأُنفِقَ في غير حِلِّه، واستثمار المال قوام المعاش ولا بد للمرء من إصلاح ماله، وما ارتفع أحد قط عن إصلاح ماله صالحًا كان أو طالِحًا.

ولا يجب للعاقل أن يعتمد علىٰ مجاورة نعم الله عنده فلا يقضي منها حقوقها؛ لأن من أساء مجاورة نعم الله أساءت مجاورته وتحولت عنه إلىٰ غيره.

ذِكْرُ الحثِّ على إقامَةِ المروءاتِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كَرَمُ الرَّجُلِ دِينُهُ وَمُروءَتُهُ عَقْلُهُ وَحَسَبُهُ خُلُقُهُ**»(١).

الواجب على العاقل أن يلزم إقامة المروءة بما قدر عليه من الخصال المحمودة وترك الخلال المذمومة.

وقد نبغتْ نابغةٌ اتكلوا على آبائهم واتكلوا على أجدادهم في الذكر والمروءات وتَعَرَّوا عن القيام بإقامتها بأنفسهم.

ولقد أنشدني منصور بن محمد في ذم من هذا نعته:

إنَّ المُـــرُوءَةَ لَـــيْسَ يُـــدْرِكُهَا امْـــرُؤ ... وَرِثَ المُـــرُوءةَ عـــنْ أبٍ فأَضَـــاعَهَا

أمَرَتْـــهُ نَفْـــسٌ بالـــدَّنَاءَةِ والخَنَـــا ... ونَهَتْـــهُ عَـــن طلَـــبِ العُلَـــىٰ فأطَاعَهَـــا

فـــإذَا أصَـــابَ مِـــنَ الأُمُـــورِ عَظِيمَـــةً ... يَبْنِـــي الكَـــرِيمُ بِهَـــا المُـــروءَةَ بَاعَهَـــا

---

(١) رواه المصنف في «الأصل» من طريق مسلم بن خالد الزِّنجي عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة به ومسلم بن خالد ضعيف.

ورواه الطبراني في «الأوسط» برقم (٦٦٨٢) من طريق أخرىٰ بيد أن فيها جهالة، وأبو يعلىٰ برقم (٦٤٥١)، بنحوه وفيه معدي بن سليمان قال أبو زرعة: واهي الحديث، وجاء موقوفًا علىٰ عمر عند البيهقي (١٠/ ١٩٥) وصحح إسناده فهو حديث حسن والله أعلم، والحديث رواه أحمد (٢/ ٣٦٥)، والدارقطني (٣/ ٣٠٣)، والحاكم (١/ ١٢٣)، والبيهقي (٧/ ١٣٦)، وغيرهم من طريق مسلم بن خالد الزنجي به وقال الحاكم: صحيح علىٰ شرط مسلم.

وتعقبه الذهبي بقوله: قلت: بل مسلم ضعيف وما خرج له.

ما رأيت أحدًا أخسر صفقةً ، ولا أظهر حسرةً، ولا أخْيَبَ قَصْدًا، ولا أقلَّ رشدًا، ولا أحمقَ شِعارًا، ولا أدنس دثارًا من المفتحر بالآباء الكرام وأخلاقهم الجسام مع تعريه عن سلوك أمثالهم وقصد أشباههم متوهِّمًا أنهم ارتفعوا بمن قبلهم وسادوا بمن تقدمهم وهيهات أنَّىٰ يسود المرء علىٰ الحقيقة إلا بنفسه وأنَّىٰ ينبل في الدارين إلا بِكَدِّه.

ولقد أنشدني البسامي:

وكَـمْ قَائِـلٍ إني ابْـنُ بَيْـتٍ هُـوَ ابْنُـهُ ... وقَـدْ هُـدِمَ البيـتُ الـذي مَـاتَ عـامِرُهُ

فـأَوْدَىٰ عَمُـودَاهُ وَرَثَّـت حِبَالُـه ... وأُصـلِحَ أُوْلاهُ وأُفْـسِدَ آخِـرُه

اختلف الناس في كيفية المروءة. والمروءة عندي خصلتان: اجتناب ما يكره الله والمسلمون من الفعال، واستعمال ما يحبُّ الله والمسلمون من الخصال.

الواجب علىٰ العاقل أن يقيم مروءته بما قدر عليه ولا سبيل إلىٰ إقامة مروءته إلا باليسار من المال فمن رُزِقَ ذلك وضنَّ[1] بإنفاقه في إقامة مروءته فهو الذي خَسر الدنيا والآخرة، ولا آمنُ أن تفجأه المنية فتسلبه عما ملك كريهًا وتودعه قبرًا وحيدًا ثم يرث المال بعدُ من يأكله ولا يحمده وينفقه ولا يشكره فأيُّ ندامةٍ تشبه هذه، وأي حسرة تزيد عليها.

والواجب علىٰ العاقل تفقُّد الأسباب المُسْتَحْقَرَةُ عند العوام من نفسه

(١) أي: بَخِلَ: «مختار الصحاح». مادة: «ضنن».

حتىٰ لا يَثْلَمَ[1] مروءته فإن المُحَقَّرات من ضد المروءات تؤذي الكامل في الحال بالرجوع القهقرىٰ إلىٰ مراتب العوام وأوباش الناس.

***

(١) أي: يكسر. «مختار الصحاح»، مادة: «ثَلَمَ».

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ السَّخَاءِ ومُجَانَبَةِ البُخْل

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السَّخِيُّ قريبٌ مِنَ الله قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، وَالبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بعيدٌ مِنَ النَّاسِ، وَلَسَخِيٌّ جاهلٌ أحبُّ إلىٰ الله مِنْ بَخِيلٍ عابدٍ**»[(١)].

الواجب علىٰ العاقل إذا أمكنه الله تعالىٰ من حُطام هذه الدنيا الفانية وعلم زوالها عنه وانقلابها إلىٰ غيره وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدَّم من الأعمال الصالحة أن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق في ماله والقيام بالواجب في أسبابه، مبتغيًا بذلك الثواب في العقبىٰ والذكر الجميل في الدنيا، إذ السخاء محبة ومحمدة كما أن البخل مذمَّةٌ ومَبْغَضَةٌ، ولا خير في المال إلا مع الجود كما لا خير في المنطق إلا مع المخبر.

ولقد أنشدني المنتصر بن بلال الأنصاري:

الجُـودُ مَكْرَمَـةٌ والبُخْـلُ مَنْقَصَـةٌ ... لا يَسْتَوِي البُخْـلُ عِنْـدَ اللهِ والجُـودُ

---

(١) الحديث رواه المصنف في «الأصل» من طريق سعيد بن محمد الوَرَّاق حدثنا يحيىٰ بن سعيد الأنصاري عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعًا به، وقال عقبة: إن كان حفظ سعيد بن محمد إسناد هذا الخبر فهو غريب غريب.

قلت: الحديث ضعيف جدًّا؛ لأن سعيدًا هذا قال فيه ابن معين: «ليس بشيء» وقال النسائي: «ليس بثقة». وقال الدارقطني: «متروك». وانظر: «الضعيفة» برقم (١٥٤).

والفَقْـرُ فِيـهِ شَـخُوصٌ والغِنَـىٰ دَعَـةٌ   والنَّـاسُ في المـالِ مَـرْزُوقٌ ومَحـدُودُ

أجود الجود من جاد بماله وصان نفسه عن مال غيره، ومن جاد ساد كما أن من بخل ذلَّ.

والجود حارس الأعراض كما أن العفو زكاة العقل، ومن أتمِّ الجود أن يتعرَّىٰ عن المنَّة، لأن من لم يمتنَّ بمعروفه وفَّره، والامتنان يهدم الصنائع، وإذا تعرَّت الصنيعة عن إزار له طرفان: أحدهما الامتنان والآخر طلب الجزاء؛ كان من أعظم الجود وهو الجود علىٰ الحقيقة. إن من أحسن خصال المرء الجود من غير امتنان ولا طلب ثواب، والحلم من غير ضعفٍ ولا مهانة.

وأصل الجود ترك الضَّنِّ بالحقوق عن أهلها كما أن أصل تربية الجسد أن لا يحمل عليه في الأكل والشرب والباه[١] فكما لا تنفع المروءة بغير تواضع ولا الحفظ بغير كفاية كذلك لا ينفع العيش بغير مال ولا المال بغير جود وكما أن القرابة تبع للمودَّة كذلك المحمدة تبع للإنفاق.

وأنشدني الكريزي ليحيىٰ بن أكثم:

ويُظهـرُ عَيْـبَ المَـرءِ في النَّـاسِ بُخْلُـهُ   ويَـسْتُرُهُ عَـنْهُمْ جَمِيعًـا سَـخاؤهُ

تغـطَّ بـأثْوَابِ الـسَّخاءِ فـإنَّني   أرَىٰ كـلَّ عَيْـبٍ والـسَّخَاءُ غطـاؤهُ

البخيل يقال له في أول درجته: البخيل، فإذا عتا وطغىٰ في الإمساك يقال له: الشحيح، فإذا ذمَّ الجود والأسخياء يقال له: لئيم، فإذا صار يحتجُّ للبخلاء ويعذرهم في فعالهم يقال له: الملائم، وما اتَّزر رجل بإزارٍ أهتك لعرضه ولا

---

(١) أي: الجماع.

أثلم لدينه من البخل.

ما رأيت أحدًا من الشرق إلىٰ الغرب ارتدىٰ برداء الجود واتَّزر بإزار ترك الأذىٰ إلا رأسَ أشكاله وأضداده وخضع له الخاصُّ والعامُّ فمن أراد الرفعة العالية في العقبىٰ والمرتبة الجليَّة في الدنيا فليلزمِ الجود بما ملك وترك الأذىٰ إلىٰ الخاص والعام، ومن أراد أن يُهْتَكَ عِرضه ويُثْلَمَ دينه ويَمَلَّهُ إخوانه ويستقلَّه جيرانه فليلزمِ البخل.

***

ذِكْرُ الزَّجْرِ عن تركِ قَبُولِ الهَدايا مِنَ الإخْوانِ

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَجِيبُوا الدَّاعِيَ ولا تَرُدُّوا الهَدِيَّةَ وَلَا تَضْرِبُوا المُسْلِمِينَ**»(١).

زجر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الخبر عن ترك قبول الهدايا بين المسلمين.

فالواجب علىٰ المرء إذا أُهديت إليه هدية أن يقبلها ولا يردها ثم يثيب عليها إذا قدر ويشكر عنها، وإنِّي لأستحبُّ للناس بعث الهدايا إلىٰ الإخوان بينهم إذ الهدية تورث المحبة وتذهب الضغينة.

لمَّا قعد أبو حنيفة قال للناس مساور الوراق:

كنَّا مِنَ الدِّينِ قَبْلَ اليَوْمِ في سَعَةٍ ... حتىٰ بُلينَا بأصْحَابِ المَقَايِيسِ

قومٌ إذَا اجْتَمَعُوا صَاحُوا كأَنَّهُم ... ثَعَالِبٌ ضَبَحَتْ بَيْنَ النَّوَاوِيسِ

فبلغ ذلك أبا حنيفة فبعث إليه بمالٍ فقال مساور حين قبض المال:

إذَ مَا النَّاسُ يومًا قَايَسُونَا ... بآبِدَةٍ(٢) مِنَ الفتْيَا طَرِيفَهْ

---

(١) الحديث صحيح وقد رواه أحمد (١/ ٤٠٤) وصححه شيخنا الوادعي رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين» (١/ ٦٤٣) برقم (٨٣٣).

(٢) الآبدة الأمر العظيم يُنْفَرُ منه ويُسْتَوحَش والآبدة: الداهية تبقىٰ علىٰ الأبد، والآبدة الكلمة أو الفعلة الغريبة. «لسان العرب» (١/ ٢٥) مادة: «أبَدَ».

أَتَيْنَاهُمْ بِمِقْيَاسٍ صَحِيحٍ مُصِيبٍ مِنْ طِرَازِ أَبِي حَنِيفَهْ
إِذَا سَمِعَ الفَقِيهُ بِهَا وَعَاهَا وأَثْبَتَهَا بِحِبْرٍ فِي صَحِيفَهْ

فالعاقل يستعمل مع أهل زمانه لزوم بعث الهدايا بما قَدرَ عليه لاستجلاب محبتهم إياه ويفارقه تركه مخافة بغضهم.

ولقد أنشدني الأبرش:

هَدَايَا النَّاس بَعْضهُمُ لِبَعْضٍ تُوَلِّدُ في قُلُوبِهُمُ الوِصَالا
وتَزْرَعُ فِي الضَّمِيرِ هَوًىٰ ووِدًّا وَتَكْسُوكَ المَهَابَةَ والجَلالا
مَصَايِدُ للقُلُوبِ بِغَيْرِ لَغبٍ وتَمْنَحُكَ المَحَبَّةَ والجَمَالا

الواجب علىٰ العاقل أن يستعمل الأشياء علىٰ ما يوجب الوقت ويرضىٰ بنفاذ القضايا ولا يتمنىٰ ضد ما رُزِق وإن كان عنده الشيء التافه لا يجب أن يمتنع من بذله لاستحقاره واستقلاله؛ لأن أهون ما فيه لزوم البخل والمنع، ومن حقر شيئًا منعه، بل يكون عنده الكثرة والقلة في الحالة سيّان؛ لأن ما يورث الكثير من الخصال أورث الصغير بقدره في الفعال.

قيل للمغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما بقي من لذتك؟ قال الإفضال علىٰ الإخوان قيل: فمن أحسن الناس عيشًا؟ قال: من عاش بِعَيْشِهِ غيره قيل: فمن أسوأ الناس عيشًا؟ قال: من لا يعيش بعيشه أحد.

❊

ذِكْرُ استحبابِ التفريجِ عنِ الناسِ بقضاءِ الحوائجِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من نَفَّس عَنْ أخِيهِ كُرْبَةً من كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ اللهُ عنه كربةً مِنْ كُرَبِ يومِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ علىٰ مُعْسِرٍ يَسَّرَ الله عليهِ فِي الدُّنيا والآخِرَةِ، ومن سَتَرَ علىٰ مسلم سَتَرَ الله عليه في الدنيا والآخِرَةِ، واللهُ في عَوْنِ العَبْدِ مَا كانَ العَبْدُ فِي عَونِ أخِيهِ**»(١)

الواجب علىٰ المسلمين كافةً نصيحة المسلمين والقيام بالكشف عن همومهم وكربهم؛ لأن من نَفَّسَ كُرْبَةً من كُرَبِ الدنيا عن مسلم نفَّس الله عنه كربةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن تحرَّىٰ قضاء حاجته ولم يُقْضَ قضاؤها علىٰ يديه فكأنه لم يقصِّر في قضائها، وأيسرُ ما يكون في قضاء الحوائج استحقاق الثناء، والإخوان يُعَرفون عند الحوائج كما أن الأهل تختبر عند الفقر؛ لأن كلَّ الناس في الرخاء أصدقاء، وشرُّ الإخوان الخاذل لإخوانه عندَ الشدَّة والحاجة كما أن شرَّ البلاد بلدة ليس فيها خِصب ولا أَمْن.

وأنشدني الكريزي:

خَيْرُ أيَّامِ الفَتىٰ يومَ نَفَعْ ... واصْطِنَاعُ العُرفِ أبْقَىٰ مُصْطَنَعْ

مَا يُنالُ الخَيرُ بالشَّرِّ ولا ... يَحْصُدُ الزَّارِعُ إلا مَا زَرَعْ

---

(١) الحديث رواه مسلم برقم (٢٦٩٩)، بأطول مما ذكره المصنف في «الأصل».

لَـيْسَ كُـلُّ الـدَّهْرِ يَومًـا واحـدًا   رُبَّمَـا انْحَـطَّ الفَتـىٰ ثُـمَّ ارْتَفَـعْ

حقيقٌ علىٰ من علم الثواب أن لا يمنع ما ملك من جاه أو مال إذا وجد السبيل إليه قبل حلول المنيَّة فيبقىٰ عن الخيرات كلِّها ويتأسف علىٰ ما فاته من المعروف.

والعاقل يعلم أن من صحب النعمة في دار الزوال لم يخلُ من فقدها، وأن من تمام الصنائع وأهناها إذا كان ابتداء من غير سؤال.

دخل أبو العتاهية(١) علىٰ الرشيد(٢) فقال: سَلْ يا أبا العتاهية فقال:

إِذَا كَـانَ المَنَـالُ بِبَـذْلِ وَجْـهٍ   فَـلا قَرَّبْـتُ مِـنْ ذَاكَ المَنَـالِ

لا يجب الإلحاف عند السؤال في الحوائج؛ لأنَّ شدَّة الاجتهاد ربما كانت سببًا للحرمان والمنع، والطالب للفلاح كالضارب بالقداح سهم له وسهم عليه، فإن أعطيَ وجبَ عليه الحمد، وإن منع لزمه الرضا بالقضاء، ولا يجب أن يكون السؤال إلا في ديار القوم ومنازلهم لا في المحافل والمساجد والملأ. قال عمر ابن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا تسألوا الناس في مجالسهم ومساجدهم فتفحشوهم ولكن سلوهم في منازلهم فمن أعطىٰ أعْطَىٰ ومن مَنَعَ مَنَع».

الذي قال عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه ورضوانه - إذا كان المسئول

---

(١) هو أبو العتاهية رأس الشعراء الأديب الصالح الأوحد أبو إسحاق إسماعيل بن قاسم بن سويد بن كيسان العنزي مولاهم الكوفي مات سنة (٢١١ هـ) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٩٥).

(٢) هو الرشيدُ الخليفة أبو جعفر هارون بن المهدي بن محمد بن المنصور أبي جعفر بن عباس الهاشمي العباس اسْتخلِف بعهدٍ معقودٍ له بعد الهادي من أبيهما المهدي في سنة (١٧٠ هـ) مات سنة (١٩٣هـ) «الكامل في التاريخ» (٦/ ٢١١) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٨٦).

كريمًا فإنه إن سُئل الحاجة في نادي قومه ولم يكن عنده قضاؤها تشوَّر[(١)] وخجل وأما إذا كان المسئول لئيمًا ودُفع المرء إلىٰ مسألته في الحاجة تقع له فإنه إن سأله في مجلسه ومسجده كان ذلك أقضىٰ لحاجته؛ لأن اللئيم لا يقضي الحاجة ديانةً ولا مروءة وإنما يقضيها إذا قضاها؛ طلبًا للذكر والمحمدة في الناس.

علىٰ أنِّي أستحب للعاقل أن لو دَفَعَه الوقت إلىٰ القِدِّ[(٢)] ومصِّ الحصىٰ ثم صبر عليه لكان أحرىٰ به من أن يسأل لئيمًا حاجةً؛ لأن إعطاء اللئيم شينٌ ومنعه حَتْفٌ[(٣)].

---

(١) أي: يخجل. «لسان العرب» (٣/ ٤٩٠). مادة: «شَوَرَ».

(٢) هو جلد السخلة. «النهاية» (٢/ ٤٢٢).

(٣) أي: هلاك. «النهاية» (١/ ٣٣١).

ذِكْرُ الحَثِ عَلَى إعْطَاءِ السُّؤَالِ وطَلبِ المَعَالي

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «مَا سُئِلَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا قطّ فقال: لا، ولا ضرب بيده شيئًا قطّ»[1].

إني لأستحبُّ للمرء طلب المعالي من الأخلاق مع ترك ردِّ السؤال؛ لأنَّ عدم المال خير من عدم محاسن الأخلاق، والندامة موكلة بترك معالجة الفرصة وإن الحرَّ – حقّ الحرِّ – من أعتقته الأخلاق الجميلة، كما أن أسوأ العبيد من استعبدته الأخلاق الدنيَّة، ومن أفضل الزاد في المعاد اعتقاد المحامد الباقية، ومن لزِمَ معاليَ الأخلاق أنتج له سلوكها فراخًا تطير بالسرور.

قال يوسف بن أسباط[2]: «ما كان المال منذ كانت الدنيا أنفع منه في هذا الزمان».

---

(١) رواه المصنف في «الأصل» من طريق محمد بن صالح الطبري وهو متَّهم بالكذب وكان مخلطًا قال ذلك الذهبي في «الميزان»، والحديث ثابت عند البخاري برقم (٦٠٤٣)، ومسلم برقم (١٨٠٥)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدون قوله: «ولا ضرب بيده شيئًا قط» وهو عند مسلم برقم (٢٣٢٨)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: «ما ضرب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا قط بيده» الحديث.

ورواه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٦/ ١٣٠) كذلك من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «ما لعن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسلمًا من لعنة تذكر ولا انتقم لنفسه شيئًا يؤتي إليه إلا أن تنتهك حرمات الله عَزَّ وَجَلَّ ولا ضرب بيده شيئًا قط» الحديث.

(٢) هو يوسف بن أسباط الزاهد من سادات المشايخ له مواعظ وحِكَم «الجرح والتعديل» (٩/ ٢١٨)، «سير أعلام النبلاء» (٩/ ١٦٩).

وأنشدني محمد بن عبد الله بن زنجي البغدادي:

بَادِرْ هَوَاكَ إذَا هَمَمْتَ بِصَالِحٍ خَوْفَ العَوَاتِقِ أن تَجِيءَ فتغلبُ
وإذَا هَمَمْتَ بِسَيِّئٍ فَتَعَدَّهُ وَتَجَنَّبِ الأمْرَ الذي يُتَجَنَّبُ

ما ضاع مال وَرَّثَ صاحبه مجدًا، ولولا المتفضلون مات المتجملون وليس يستحقُّ المرء اسم الكرم بالكفِّ عن الأذىٰ إلا أنْ يقرنه بالإحسان إليهم، فمن كثر في الخير رغبته وكانَ اصطناعُ المعروف همته قَصَدَه الراجون وتأمله المتأملون، ومن كان عيشه وحده ولم يعش بعيشه غيره فهو وإن طال عمره قليل العمر، والبائس من طال عمره في غير الخير، ومن لم يتأسَّ بغيره في الخير كان عاجزًا كما أن من استحسن من نفسه ما يستقبحه من غيره كان كالغاشِّ لمن تجب عليه نصيحته، ومن لم يكن له هِمَّةٌ إلا بطنه وفرجه عُدَّ من البهائم، والهمَّة تبلِّغ الرتبة العالية؛ لأن الناس بهممهم.

الواجب علىٰ العاقل أن يبدأ بالصنائع والإحسان الأفْرض[1] فالأفرض يبدأ بأهل بيته ثم بإخوانه وجيرانه ثم الأقرب فالأقرب ويتحرَّىٰ المعروف والإحسان في أهل الدين والعلم، ومنهم من يتجنب ضد ما قلنا.

وأنشدني البسامي:

وكُنتَ كَمُهْرِيقِ الذي فِي سِقَائِهِ لِرَقْرَاقِ مَاءٍ فَوْقَ رَابِيَةٍ صَلْدِ
كَمُرْضِعَةٍ أولادَ أُخْرَىٰ وضَيَّعَتْ بَنِي بَطْنِهَا هَذا الضَّلالُ مِن القَصْدِ

العاقل يبتدئ بالصنائع قبل أن يُسأل؛ لأن الابتداء بالصنيعة أحسن من

(١) يعني: الأفرض من جهة الميراث.

المكافأة عليها، والإمساك عن التعرُّض خير من الذُّل، والصنائع إنما تحسن بإتمامها والتحافظ عليها بعدها؛ لأن بصلاح الخواتم تزكو الأوائل والعطية بعد المنع أجمل من المنع بعد العطية، والناس في الصنائع علىٰ ضربين: شاكر وكافر ولقد أنشدني بعض إخواننا:

ومَا النَّاسُ فِي حُسْنِ الصَّنِيْعَةِ عَنْدهُمْ ... وَفِي كفرهم إلَّا كَبَعْضِ المَزَارعِ

فَمْزْرَعَةٌ طَابَتْ وأضعفَ رَيْعُهَا ... وَمَزْرَعةٌ أكْدَتْ عَلَىٰ كلِّ زارعِ

***

ذِكْرُ الحثِّ على الضِّيافةِ وإطْعَامِ الطَّعامِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ كَانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلْيُكرِمْ ضَيْفَهُ، ومَنْ كَانَ يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فَلا يُؤذِ جَارَهُ**»(١).

إني لأستحب للعاقل المداومة علىٰ إطعام الطعام والمواظبة علىٰ قِرَىٰ(٢) الضيف؛ لأن إطعام الطعام من أشرف أركان النَّدَىٰ(٣) ومن أعظم مراتب ذوي الحجىٰ ومن أحسن خصالِ أُولي النُّهىٰ، ومن عُرِفَ بإطعام الطعام شَرُف عند الشاهد والغائب، وقصده الراضي والعاتب، وقِرَىٰ الضيف يرفع المرء وإن رَقَّ نَسَبُه إلىٰ منتهىٰ بغيته ونهاية محبته ويُشرِّفه برفيع الذكر وكمال الذخر.

كلُّ من ساد في الجاهلية والإسلام حتىٰ عرف بالسؤددِ وانقاد له قومه ورحل إليه القريب والقاصي لم يكن كمال سؤدده إلا بإطعام الطعام وإكرام الضيف، والعرب لم تكن تعد الجود إلَّا قِرَىٰ الضيف وإطعام الطعام ولا تعدُّ

---

(١) الحديث رواه البخاري برقم (٦١٣٦)، ومسلم برقم (٤٧)، بلفظ «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت**» واللفظ لمسلم.

(٢) أي: إطعام.

(٣) الجود «مختار الصحاح» مادة: «ندا».

السخيَّ من لم يكن فيه ذلك حتىٰ إن أحدهم ربما سار في طلب الضيف الميل والميلين.

وأنشدني محمد بن إسحاق بن حبيب الواسطي:

إذا مَا أتَاكَ الضَّيْفُ فابْدَأ بِحَقِّهِ قُبَيْلَ العِيَالِ إنَّ ذَلِكَ أصْوَبُ

وعَظِّم حُقُوقَ الضَّيْفِ واعْلَمْ بأنَّهُ عَلَيْكَ بِمَا تُوليهِ مُثْنٍ وذَاهِبُ

يجب علىٰ العاقل ابتغاء الأضياف وبذل الكِسَر؛ لأن نعمة الله إذا لم تُصَنْ بالقيام في حقوقها ترجع من حيث بدأت، ثم لا ينفع من زالت عنه التلهفُ عليها ولا الإفكار في الظفر بها، وإذا أدَّىٰ حقَّ الله فيها استجلب النماء والزيادة واستذخر الأجر في القيامة واستقصر إطعام الطعام. وعُنْصُر قِرَىٰ الضيف هو ترك استحقار القليل وتقديم ما حضر للأضياف؛ لأن من حَقَّر منع إكرام الضيف بما يقدر عليه وترك الادخار عنه.

ومن إكرام الضيف طيب الكلام وطلاقة الوجه والخدمة بالنفس، فإنه لا يَذِلّ من خدم أضيافه كما لا يَعِزُّ من استخدمهم أو طلب لقراه أجرًا.

أنْشَدَ محمد بن سهيل:

وإنِّي لَطَلْقُ الوَجْهِ للمبتغي القِرَىٰ وإنَّ فِنَائي للقِرَىٰ لرحيبُ

أُضاحكُ ضيفي عند إنزال رَحْلِهِ فيخصب عندي والمحلُّ جديبُ

وما الخِصبُ للأضيافِ أن يَكْثُر القِرَىٰ ولكِنَّما وجْهُ الكَرِيمِ خَصِيبُ

ذِكْرُ الحَثِّ علَى المُجَازَاةِ علَى الصنائعِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ لا يَشْكُرُ النَّاسَ لا يشكرُ الله**»[١].

الواجب علىٰ من أُسْدِي إليه معروف أن يشكره بأفضلَ منه أو مثله؛ لأن الإفضال علىٰ المعروف في الشكر لا يقوم مقام ابتدائه وإن قَلَّ فمن لم يجد فَلْيُثْنِ عليه فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف وما استغنىٰ أحد عن شكر أحد.

ولقد أنشدني محمد بن زنجي البغدادي:

فَلَو كَانَ يَسْتَغْنِي عن الشُّكْرِ مَاجِدُ ... لِعِزَّةِ مُلْكٍ أو علوٍّ مكانِ

لمَا أمَرَ اللهُ العِبَادَ بِشُكْرِهِ ... فَقَالَ اشْكروني أيُّها الثَّقَلانِ

مرَّ سعيد بن العاص[٢] بدار رجل بالمدينة فاستسقىٰ فَسَقَوْهُ، ثم مرَّ بعد ذلك بالدار ومنادٍ ينادي عليها فمن يزيد؟ فقال لمولاه: سَلْ: لِمَ تباع هذه؟ فرجع إليه فقال: علىٰ صاحبها دين، قال: فارجع إلىٰ الدار فرجع فوجد صاحبها

---

(١) الحديث رواه أحمد (٢/ ٢٥٨)، وغيره وهو حديث صحيح.

(٢) هو سعيد بن العاص بن أبي أُحَيْحَة سعيد بن العاص بن أُمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي كان أميرًا شريفًا جوادًا مُمَدَّحًا حليمًا وقورًا، ذا حزم وعقل يصلح للخلافة ولي إمرة المدينة غير مرة لمعاوية وقد ولي إمرة الكوفة لعثمان بن عفان وقد اعتزل الفتنة فأحسن ولم يقاتل مع معاوية. «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٤٤) «الوافي بالوفيات» (١٥/ ٢٢٧).

جالسًا وغريمه معه فقال: لم تبيع دارَك؟ قال: لهذا عليَّ أربعة آلاف دينار فَنزَل وتحدث معهما وبعث غلامه فأتاه بِبَدْرَةٍ[١] فدفع إلىٰ الغريم أربعة آلاف ودفع الباقي إلىٰ صاحب الدار وركب ومضىٰ.

وأنشدني المنتصر بن بلال:

ومَـنْ يُـسْدِ مَعْرُوفًـا إليـكَ فَكُـنْ لَـهُ ... شَـكُورًا يَكُـنْ مَعْروفُـهُ غيـرَ ضـائِعِ

ولا تَـبْخَلَنْ بالـشُّكْرِ والقَـرْضَ فـاجْزِهِ ... تَكُـنْ خَيْـرَ مَـصْنوعٍ إليـه وصـانِعِ

الحرُّ لا يكفر النعمة ولا يتسخط المصيبة بل عند النعم يشكر وعند المصائب يصبر، ومن لم يكن لِقَلِيلِ المعروف عند وقعه شاكرًا أوشك ألَّا يشكر الكثير منه، والنعم لا تستجلب زيادتها ولا تدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله جلَّ وعلا ولمن أسداها إليه.

وأنشدني الأبرش:

الـشُّكْرُ يَفْـتَحُ أبْوابًـا مُغَلَّقَـةً ... للهِ فِيهَـا علـىٰ مـن رَامَـهُ نِعَـمُ

فبَـادِرِ الـشُّكرَ واسـتغْلِقْ وثَائِقَـهُ ... واسْـتَدْفع مـا تَجْـرِي بـه الـنِقَمُ

الواجب علىٰ المرء أن يشكر النعمة ويحمد المعروف علىٰ حسب وُسعِه وطاقته إن قدر فالضِّعف وإلا فبالمثل وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده مع بذل الجزاء له بالشكر وقوله: جزاك الله خيرًا، فمن قال لك ذلك عند العدم فكأنه أبلغ في الثناء[٢].

---

(١) البَدْرة: عشرة آلاف درهم. «مختار الصحاح»، مادة: «بَدَرَ».

(٢) بل قد أبلغ في الثناء لقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من صُنِع إليه معروف فقال لفاعله: جزاك الله خيرًا =

ومن الناس من يكفر النعم، وكفران النعم يكون من أحد رجلين:

إما من رجل لا معرفة له بأسباب النعم والمجازاة عليها لما لم يركَّب فيه من التفقد لمراعاة العِشْرَة فإذا كان كذلك وجب الإغضاء عنه وترك المناقشة علىٰ فِعْلِهِ.

والرجل الآخر: أن يكون ذا عقل لم يشكر النعم استخفافًا بالمنعم واستحقارًا للنعمة وتهاونًا في نفسه لهما أو لأحدهما فإذا كان كذلك يجب علىٰ العاقل ترك العود إلىٰ مثل فعله والخروج باللائمة علىٰ نفسه إذا كان له خبرة به.

❊

=

فقد أبلغ في الثناء» رواه الترمذي برقم (٢٠٣٦) وغيره من حديث أُسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٣٦٨).

ذِكْرُ الحثّ على سياسةِ الرِّياسةِ ورعايةِ الرّعيّةِ

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مسئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالأميرُ راعٍ علىٰ رَعِيَّتِهِ ومسئولٌ عنهمْ، والرَّجُلُ راعٍ علىٰ أهل بيتِهِ وهوَ مسئولٌ عَنْهُمْ، والمرأةُ رَاعِيَةٌ عَلَىٰ بَيْتِ زَوْجِهَا وهِيَ مسئولةٌ عَنْهُ، والعَبْدُ راعٍ علىٰ مالِ سَيِّدِهِ وهوَ مسئولٌ عَنْهُ**»(١).

صرحت السنة عن المصطفىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن كلَّ راع مسئول عن رعيته، فالواجب علىٰ كلِّ من كان راعيًا لزوم التعاهد لرعيته، فرُعاة الناس العلماء، وراعي الملوك العقل، وراعي الصالحين تقواهم، وراعي المتعلم معلمه، وراعي الولد والده، كما أن حارس المرأة زوجها، وحارس العبد مولاه، وكلُّ راع منَ الناس مسئول عن رعيته.

وأكثر ما يجب تعاهد الرعيَّة للملوك إذ هم رعاة لها وهم أرفع الرعاة لكثرة نفاذ أُمورهم، وعُقد الأشياء وحلّها من ناحيتهم فإذا لم يراعوا أوقاتهم ولم يحتاطوا لرعيتهم هلكوا وأهلكوا، وربما كان هلاك عالم في فساد مَلِكٍ واحدٍ ولا يدوم ملكُ مَلِكٍ إلا بأعوان تطيعه، ولا يطيعه الأعوان إلا بوزير، ولا يتم ذلك إلا أن يكون الوزير ودودًا نصوحًا، ولا يوجد ذلك من الوزير إلا بالعفاف والرأي، ولا يتم قِوَامُ هؤلاء إلا بالمال، ولا يوجد المال إلَّا بصلاح

(١) الحديث رواه البخاري برقم (٢٤٠٩)، ومسلم برقم (١٨٢٩).

الرعية، ولا تصلح الرعية إلا بإقامة العدل فكأنَّ ثباتَ الملك لا يكون إلا بلزوم العدل وزواله لا يكون إلا بمفارقته.

فالواجب علىٰ المَلِكِ أن يتفقد أمور عماله حتىٰ لا يخفىٰ عليه إحسانُ محسنٍ ولا إساءةُ مسيءٍ؛ لأنه إذا خفي عليه أعمال عماله لم يكن قائمًا بالعدل.

وكل رياسة لم تكن مشوبة بتقوىٰ الله تكون خساسة لا رياسة، والاحتواء علىٰ الرياسة من غير تقوىٰ كالقاعد علىٰ الكناسة(١).

كما قال بعضهم:

رِيَاسَاتُ الرِّجَالِ بِغَيْرِ دِينٍ وَلا تَقْوَىٰ الإِلهِ هِيَ الخَسَاسَة

وكلُّ رياسةٍ مِن غَيْرِ تقوىٰ أذلُّ مِنَ الجُلوسِ علىٰ الكَنَاسَةْ

وأشْرَفُ مَنْزِلٍ وأعزُّ عِزٍّ وخَيْرُ رياسَةٍ تَرْكُ الرِّياسَةْ

خرج الزهري(٢) يومًا من عند هشام بن عبد الملك فقال: ما رأيت كاليوم ولا سمعت به كأربع كلمات تكلَّم بِهنَّ رجلٌ آنفًا عند هشام بن عبد الملك فقيل له: وما هنَّ؟ قال: قال له رجل: يا أمير المؤمنين احفظ عني أربع كلمات فيهن إصلاح ملكك واستقامة رعيتك قال: هاتهن قال: لا تعدنَّ عِدَةً لا تثق من نفسك بإنجازها، ولا يغرنك المرتقىٰ وإن كان سهلًا إذا كان المنحدر وعْرًا، واعلم أنَّ للأعمال جزاءً فاتَّقِ العواقب، وأنَّ للأمور بغتات فكن علىٰ حذر.

---

(١) الكناسة: هي القمامة. «مختار الصحاح»، مادة: «كَنَسَ».

(٢) هو الزهري أعلم الحفاظ أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري المدني الإمام مات سنة (١٢٤هـ) «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٠٨).

من صحب السلطان فلا يجب أن يكتمه نصيحته؛ لأن من كتم السلطان نصيحته والأطباء مرضه والإخوان بثَّه[١] فقد خان نفسه، ومن يصحب السلطان لا ينجو من الآثام كما أن راكب العجل لا يأمن العثار، ولا يجب أن يأمن غضب السلطان إن صدقه ولا عقوبته إن كذبه، ولا يجترئ عليه وإن أدناه؛ لأن الحازم العاقل لا يشرب السُّمَّ اتكالًا على ما عنده من الترياق[٢] والأدوية، وإني لأستحبُّ لمن امتحن بصحبة السلطان أن يعلمه لزوم تقوى الله والعمل الصالح كأنه يتعلم منه ويؤدبه كأنه يتأدب به ويتقي سخطاته، والسخط إذا كان عن علَّة كان الرضا عنه موجودًا وإذا كان من غير علةٍ ينقطع حينئذٍ الرجاء، ولا يجب للرعية أن تعلم كلَّ ما تأتي الملوك من أمورها؛ لأن معرفتهم إياها بعض الفتنة وهيهات من ذا صحب السلطان فلم يفتتن ومن اتبع الهوى فلم يعطب؟ إن الشجرة الحسنة ربما كان سببَ هلاكها طيبُ ثمرتها وربما كان ذَنَب الطاوس الذي فيه جماله سبب حتفه؛ لأنه يثقله حتى يمنعه من الهرب. ومن صحب السلطان لم يأمن التغير على نفسه؛ لأن الأنهار تكون عذبةً ما لم تنصَبَّ إلى البحور فإذا وقعت في البحور ملحت على أن قعود العلماء عن أبواب الملوك زيادة في نور علمهم، وكثرة غشيانهم[٣] إياهم غشاوة على قلوبهم ومن صحب الملوك لم يأمن تغيُّرهم، ومن زايلهم[٤] لم يأمن تفقدهم، وإن قطع الأُمور

---

(١) البث: الحال والحزن. «مختار الصحاح»، مادة: «بثث».

(٢) الترياق: دواء السموم. «مختار الصحاح»، مادة: «ترق».

(٣) أي: المجيء إليهم والدخول عليهم، انظر: «مختار الصحاح»، مادة: «غشا».

(٤) أي: فارقهم. «مختار الصحاح»، مادة: «زيل».

دونهم لم يأمن فيها مخالفتهم، وإن عزم علىٰ شيءٍ لم يجد بدًّا من مؤامرتهم، وأسمج شيءٍ بالملوك الحِدَّة.

الواجب علىٰ من ملك أمور المسلمين الرجوع إلىٰ الله جلَّ وعلا في كلِّ لحظةٍ وطرفةٍ لئلا يطغيه ما هو فيه من تَسَلُّطِهِ بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه وأنه هو المنتقم ممن ظلم والمجازي لمن أحسن فليلزم في إِمْرَتِهِ السلوك الذي يؤديه إلىٰ اكتساب الخير في الدارين وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله فإنه لا محالة مسئول عن شكر ما هو فيه كما هو لا محالة مسئول عن حسابه.

***

ذِكْرُ الدُّنْيَا وتَقلُّبِهَا بأهْلِهَا

عن أبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًىٰ فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ**(١) **عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فكأنَّما حِيزَتْ**(٢) **لَهُ الدُّنيا**»(٣).

الواجب علىٰ العاقل أن لا يغترَّ بالدنيا وزهرتها وحسنها وبهجتها فيشغل بها عن الآخرة الباقية والنعم الدائمة، بل ينزلها حيث أنزلها الله؛ لأن عاقبتها لا محالة تصير إلىٰ فناءٍ يخرب عمرانها، ويموت سكانها، وتذهب بهجتها، وتبيد خضرتها، فلا يبقىٰ رئيس متكبر مؤمَّر ولا فقير مسكين محتقر إلا ويجري عليهم كأس المنايا ثم يصيرون إلىٰ التراب فيبلون حتىٰ يرجعوا إلىٰ ما كانوا عليه في البداية إلىٰ الفناء ثم يرث الأرضَ ومن عليها علَّام الغيوب، فالعاقل لا يركن إلىٰ دارٍ هذا نعتها، ولا يطمئن إلىٰ دنيا هذه صفتها وقد ادّخر له ما لا عين رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر(٤) فَيَضِنّ بترك هذا القليل ويرضىٰ

---

(١) سِربه بالكسر؛ أي: نفسه. «النهاية» (١/ ٧٦٧).

(٢) أي: جُمِعَت.

(٣) رواه المصنف في «الأصل» من طريق عبد الله بن هاني بن أبي عبلة متهم بالكذب كما في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٥١٧) وقد روي من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري عند البخاري في «الأدب المفرد» برقم (٣٠٠)، والترمذي برقم (٢٣٤٦)، وابن ماجه برقم (٤١٤١) وغيرهم.
ومن حديث ابن عمر عند الطبراني في «الأوسط» برقم (١٨٤٩)، ولا يخلو كلٌّ منهما من ضعفٍ وبمجموع هذين الحديثين حسن الحديث الألباني في «الصحيحة» تحت رقم (٢٣١٨).

(٤) لما روىٰ البخاري برقم (٣٢٤٤) ومسلم برقم (٢٨٢٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال =

بفوت ذلك الكثير، وأنشدني الكريزي:

مَا الدَّهْرُ إلَّا ليلةٌ وَيَوْمُ والعَيْشُ إلَّا يقْظَةٌ ونَوْمُ

يَعِيشُ قَوْمٌ ويَمُوْتُ قَوْمُ والدَّهْرُ قَاضٍ مَا عَليهِ لَوْمُ

الدنيا بحر طفَّاح والناس في أمواجها يعومون وفي أمْثالٍ تضربها الأيام للأنام وما أكثر أشباهها منها؛ لأن كل ما يصير إلىٰ فناء منها يشبهها فمن أُوتي من الدنيا أشياء ثلاثة فقد أُوتي الدنيا بحذافيرها: الأمن والقوت والصحة لا يغترُّ بشيءٍ منها إلَّا كلُّ خداع ولا يركنُ إليها إلا كلُّ منَّاع فالعاقل يعلم أن ما لم يبق لغيره عليه غير باقٍ وأن ما سلب عن غيره لا يترك عليه؛ فالقصد إلىٰ ما يعود بالنفع في الآخرة للعاقل من الدنيا أحرىٰ من السلوك في قصد الظنِّ بها والجمع لها من غير تقديم ما يقدم عليه في الآخرة من الأعمال الصالحة وترك الاغترارِ بها، والاعتبار بتقلبها بأهلها ولا شيء أعظم خطرًا من الحياة ولا غَبن أعظم من إفنائها لغير حياة الأبد، ومن اشتهىٰ أن يكون حرًّا فليجتنب الشهوات وإن كانت لذيذةً، وليعلم أن كلَّ لذيذ ليس بنافع ولكن كل نافع هو اللذيذ، وكل الشهوات مملولة إلا الأرباحَ فإنها لا تُمَلّ، وأعظم الأرباح الجنة والاستغناء باللهِ عن الناسِ.

ولقد أنشدني علي بن محمد البّسامي:

فأعظم بِصَبرٍ للزَّمَانِ فإنَّهُ عَلىٰ حَالَةِ المَكْروهِ لَيْسَ بِدَائم

=

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال الله تعالىٰ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر».

تَــدورُ لنـــا أفلاكُـــهُ بِعَجَائِـــبِ ... إذَا مـا انْقَـضَتْ كانـت كـأَحْلَامِ نـائم

ســرورٌ وهَــمٌّ وانتعــاشٌ وســقطَةٌ ... إلــىٰ أجَــلٍ دَانٍ لِـــذَلِكَ هَـــادِمِ

وبـاللهِ دون النـاسِ فاسـتغن واسـتعِنْ ... إذا نَزَلَــتْ إحْــدَىٰ الأُمــورِ العظـائِم

السبب المؤدي للعاقل إلىٰ إنزاله الدنيا منزلتها: ترك الركون إليها مع تقديم ما قدر منها للعيش الدائم والنعيم المقيم هو ترك طول الأمل ومراقبة ورود الموت عليه في كل لحظة وطرفة؛ لأن طول الآمال قطعت أعناق الرجال، فالعاقل يلزم تركها مع الاعتبار الدائم بمن مضىٰ من الأُمم السالفة والقرون الماضية كيف عَفَت آثارهم واضْمَحَلَّت أنباؤهم فما بقي منهم إلا الذكر ولا من ديارهم إلا الرسم؛ فسبحان من هو قادر علىٰ بعثهم وجمعهم للجزاء والعقاب.

ذِكْرُ الحثِّ على لُزُومِ ذِكْرِ المَوْتِ الطَّاعَاتِ

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَكْثِروا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذاتِ المَوْتِ**»(١).

الواجب علىٰ العاقل أن يضم إلىٰ رعاية ما ذكرنا من شُعَب العقل في كتابنا هذا لزوم ذكر الموت علىٰ الأوقات كلِّها وترك الاغترار بالدنيا في الأسباب كلِّها؛ إذ الموت رَحًىٰ دوَّارةٌ بين الخلق وكأس يُدَار بها عليهم لا بد لكلِّ ذي روح أن يشربها ويذوق طعمها وهو هاذم اللَّذَّات ومُنَغِّص الشهوات ومكدِّر الأوقات ومزيل العاهات.

العاقل لا ينسىٰ ذكر شيءٍ هو مترقب له ومنتظر وقوعه من قَدَمٍ إلىٰ قدم ومن لحظةٍ إلىٰ شزرةٍ؛ فكم من مكرَّم في أهله معظم في قومه مبجَّل في جيرته لا يخاف الضيق في المعيشة ولا الضَّنك في المصيبة إذا ورد عليه مذلل الملوك وقاهر الجبابرة وقاصم الطغاة فألقاه صريعًا بين الأحبة وجيرانه مفارقًا لأهل بيته وإخوانه لا يملكون له نفعًا ولا يستطيعون عنه دفعًا؛ فكم من أُمَّةٍ قد أبادها الموت وبلدةٍ قد عطلها وذات بعل قد أرملها وذي أبٍ قد أيتمه وذي إخوةٍ أفرده.

فالعاقل لا يغترُّ بحالةٍ نهايتها تؤدِّي إلىٰ ما قلنا ولا يركن إلىٰ عيش مغبَّته

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٩٣) وغيره وهو حديث حسن.

ما ذكرنا ولا ينسىٰ حالةً لا محالة هو مواقعها، ويومًا لا شكَّ يأتيه إذ الموت طالب حثيث لا يعجزه المقيم ولا ينفلت منه الهارب.

وأنشدني الكريزي:

أمْوَالُنـا لِـذَوِي المِيـرَاثِ نَجْمَعُهَـا ... ودُورُنـا لخَـرَابِ الـدَّهْرِ نَبْنِيهَـا

والـنَّفْسُ تَكْلَـفُ بالـدُّنْيا وَقَـدْ عَلِمَـتْ ... أنَّ الـسَّلَامَة فيهَـا تَـرْكُ مَـا فِيهَـا

فَـلا الإقامَـة تنجـي الـنَّفْسَ مِـنْ تَلَـفٍ ... ولا الفِـرَارُ مِـن الأحْـدَاثِ يُنْجِيهَـا

وكُـلُّ نَفْـس لهـا زَوْرٌ يُـصَبِّحُها ... مِـنَ المَنِيَّـةِ يَوْمًـا أو يمْـسِّيها

إنَّ الله جلَّ وعلا خلق آدم وذريته من الأرض فأمشاهم علىٰ ظهرها فأكلوا من ثمارها وشربوا من أنهارها ثم لا محالة تنزل المنية بهم وتغنيهم عن السعي والحركات مع تعطيل الجُثَثِ والآلات ثم تعيدهم إلىٰ الأرض التي منها خلقهم حتىٰ تأكل لحومهم كما أكلوا أثمارها وتشرب دماءهم كما شربوا من أنهارها وتقطع أوصالهم كما مشوا علىٰ ظهرها، فالقبر أوَّل منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا، فطوبىٰ لمن مَهَّدَ في دنياه لقبره وقدم فيها لآخرته فكم عَفَّرَت الأرض من عزيز وأفقدت العين من أنيس.

قال إبراهيم بن يزيد: رأيت أعرابيًّا وقف علىٰ مقبرة وهو يقول:

لِكُـلِّ أُنَـاسٍ مَقْبَـرٌ بِفِنَـائِهِمْ ... فَهُـمْ يَنْقُـصُونَ والقُبُـورُ تَزِيـدُ

ومَـا إن تَـرَىٰ دَارًا لحـيٍّ قـد اقْفـرتْ ... وقَبْـرًا لِمَيْـتٍ بالفِنـاءِ جديـدُ

فَهُـمْ جِيـرةُ الأحيـاءِ أمَّـا مَحَلُّهـم ... فَـدَانٍ وأمَّـا المُلْتَقَـىٰ فبَعِيـدُ

خاتمة

قال أبو حاتم[(١)] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد ذكرنا اليسير من الكثير من الآثار والقليل من الجسيم من الأخبار في كتابنا هذا[(٢)] بما نرجو أن القاصد إلىٰ سلوك سبيل ذوي الحجىٰ والسالك مقصد سبيل أولي النُّهىٰ يكون له فيها غُنية إن تدبرها واستعملها وإن كنا تنكبنا طرق المسانيد وتخريج الحكايات وأناشيد الأشعار إلا ما لم نجد بُدًّا من إخراجها كالإيماء إلىٰ الشَّيء والإشارة إلىٰ القصد جعلنا الله ممن دعته تباشير التوفيق إلىٰ القيام بحقائق ... بحقائق التحقيق للتمكُّن من رحمته وطلب الوصول إلىٰ مَحلِّ أهل ولايته إنه منتهىٰ الغاية عند رجاء المؤمنين والمانُّ علىٰ أوليائه بمنازل المقربين.

وصلىٰ الله علىٰ محمدٍ خاتم النبيين وعلىٰ آله الطاهرين الطيبين والحمد لله ربِّ العالمين[(٣)]

---

(١) كنية ابن حبان.

(٢) أي: «الأصل».

(٣) قال أبو همام، عامله الله بلطفه: كان الفراغ من هذا العمل في ليلة السبت الموافق ٢٢/ ١٢/ لعام ١٤٢٩ هـ أسأل الله العليَّ العظيم أن ينفعني به يوم لقائه إنه علىٰ كل شيء قدير وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، والحمد لله ربِّ العالمين.



الفهرس

الفهرس

مقدمة ٥

عملي في الكتاب ٧

ابن حبان في سطور ٨

مقدمة المصنف في الأصل ١١

ذِكْرُ الحَثِّ علىٰ لُزومِ العَقْلِ وصِفَةِ العَاقِلِ اللَّبِيْبِ ١٣

ذِكْرُ إصْلاحِ السَّرائِرِ بلُزُومِ تَقْوىٰ اللهِ ١٦

ذِكْرُ الحَثِّ علىٰ لُزومِ العِلْمِ والمُدَاوَمَةِ علىٰ طَلَبِهِ ١٩

ذِكْرُ الحَثِّ عَلىٰ لُزُومِ الصَّمْتِ وحِفْظِ اللِّسَانِ ٢٣

ذِكْرُ الحَثِّ علىٰ لُزُومِ الصِّدْقِ ومُجَانبَةِ الكَذِبِ ٢٦

ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ الحَياءِ وَتَرْك القُحَّةِ ٢٩

ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ التَّوَاضُعِ ومُجَانبَةِ الكِبْرِ ٣١

ذِكْرُ اسْتِحْبَاب التَّحَبُّبِ إلىٰ النَّاسِ مِنْ غَيْرِ مُقارَفَةِ المَأْثَمِ ٣٤

ذِكْرُ استحباب لُزُومِ المُدَارَاةِ وتَرْكِ المُدَاهَنَةِ مَعَ النَّاسِ ٣٦

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ إفْشَاءِ السَّلامِ وَإظْهَارِ البِشْرِ والتَّبَسُّمِ ٣٨

ذِكْرُ مَا أبِيْحَ مِن المِزَاحِ للْمرءِ وَمَا كُرِهَ لَهُ مِنْهُ ٤٠

ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ الاعْتِزَالِ مِنَ النَّاسِ عَامًّا ٤٣
ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ المُؤاخَاةِ للمَرْءِ مَعَ الخَاصِّ ٤٥
ذِكْرُ كَرَاهِيَةِ المُعَادَاةِ للنَّاسِ ٤٨
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ صُحْبَةِ الأخيارِ والزَّجْرِ عَنْ عِشْرَةِ الأشْرَارِ ٥١
ذِكْرُ كَرَاهِيَةِ التلوُّن في الوِدَادِ بَيْنَ المُتآخِيينَ ٥٤
ذِكْرُ ائتِلَافِ النَّاسِ واخْتِلافِهِمْ ٥٦
ذِكْرُ الحثِّ علَىٰ زِيَارَةِ الإخْوَانِ وإكْرامِهِمْ ٥٨
ذِكْرُ صِفَةِ الأحْمَقِ والجَاهِلِ ٦١
ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنِ التَّجَسُّسِ وسوءِ الظَّنِّ ٦٤
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ مُجَانَبَةِ الحِرْصِ لِلعَاقِلِ ٦٨
ذِكْرُ الزَّجْرِ عن التَّحَاسُدِ والبَغْضَاءِ ٧١
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ مُجَانَبَةِ الغَضَبِ وكَرَاهِيَّةِ العَجَلَةِ ٧٤
ذِكْرُ الزَّجْرِ عَن الطَّمَعِ إلىٰ النَّاسِ ٧٧
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ مُجَانَبَةِ المَسْألَةِ وَكَرَاهِيتِهَا ٨٠
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ القَنَاعَةِ ٨٣
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ التَّوَكُّلِ علىٰ مَنْ ضَمِنَ الأرْزَاق ٨٦
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ الرِّضَا بالشَّدَائِدِ والصَّبْرِ عَلَيْهَا ٨٩

ذِكْرُ الحَثِّ علىٰ العَفْوِ عَنِ الجَانِي ٩٢
ذِكْرُ صِفَةِ الكَرِيمِ وَاللَّئِيمِ ٩٤
ذِكْرُ الزَّجْرِ عَن قَبُولِ قَوْلِ الوُشَاةِ ٩٦
ذِكْرُ اسْتِحْبَابِ قَبُولِ الاعتِذَارِ مِن المُعْتَذِرِ ٩٩
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ كِتْمَانِ السِّرِّ ١٠٢
ذِكْرُ المَشْوَرَةِ في أوْقَاتِ الضَّرُورَاتِ ١٠٥
ذِكْرُ الحَثِّ علىٰ لُزُومِ النَّصِيْحَةِ للمُسْلِمِين كَافَّةً ١٠٨
ذِكْرُ الزَّجْرِ عَن تَهَاجُرِ المُسْلِمينَ كَافَّةً ١١٠
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ الحِلْمِ عِنَدَ الأذَىٰ ١١٣
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ الرِّفْقِ في أُمورٍ وكَرَاهِيَّةِ العَجَلَةِ فيهَا ١١٦
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ تعلُّمِ الأدَبِ وَلُزُومِ الفَصَاحَةِ ١١٩
ذِكْرُ إبَاحَةِ جَمْعِ المَالِ للقَائِمِ بِحُقُوقِهِ ١٢٢
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ إقَامَةِ المُروءاتِ ١٢٥
ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ السَّخَاءِ ومُجَانَبَةِ البُخْلِ ١٢٨
ذِكْرُ الزَّجْرِ عن تَرْكِ قَبُولِ الهَدَايَا مِنَ الإخْوَانِ ١٣١
ذِكْرُ استِحْبَابِ التَّفريجِ عَنِ النَّاسِ بقَضَاءِ الحَوَائجِ ١٣٣
ذِكْرُ الحَثِ عَلَىٰ إعْطَاءِ السُّؤالِ وطَلَبِ المَعَالي ١٣٦

ذِكْرُ الحثِّ علىٰ الضِّيَافَةِ وإطْعَامِ الطَّعامِ ١٣٩

ذِكْرُ الحَثِّ عَلَىٰ المُجَازَاةِ علَىٰ الصنائعِ ١٤١

ذِكْرُ الحثِّ علىٰ سِيَاسَةِ الرِّياسَةِ ورِعَايَة الرَّعِيَّةِ ١٤٤

ذِكْرُ الدُّنْيَا وَتَقَلُّبِهَا بأَهْلِهَا ١٤٨

ذِكْرُ الحثِّ علىٰ لُزُومِ ذِكْرِ المَوْتِ الطَّاعَاتِ ١٥١

خاتمة ١٥٣

الفهرس ١٥٥